



لولوة في باريس

فارس الروضان



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

لولوة في باريس

(رواية)

تأليف فارس الروضان

1435هـ / 2013م

الطبعة الأولى

الإهداء..

إلى من علّمتني الحب والحياة..

أمي..

جميع شخصيات الرواية وأحداثها

هي من خيال الكاتب

وليس لها علاقة بالواقع

الفصل الأول

- 1 -

لم يكن خالد في يوم من الأيام حريصاً على المواعيد الدقيقة، حتى لو تعلّق الأمر بموعد سفر، لهذا فقد وصل إلى صالة الطيران الأجنبي بمطار «الملك خالد الدولي» بالرياض في اللحظات الأخيرة، قبل موعد إقلاع طائرة الخطوط الفرنسية إلى باريس.

وفي كل مرة كان يعيش هذه اللحظات العصيبة، يعاهد نفسه على التزام المواعيد، حتى لا يعيش هذه اللحظات مجدداً، ولكنه ما أن يتجاوز الموقف حتى يرمي بعهوده في أحضان الرياح.

كانت الفوضى تتلبسه بكل تفاصيلها، حقائب يدوية متنوعة، إحداها حقيبة تحوي جهاز الكمبيوتر المحمول، وأخرى للكاميرا، وحقيبة ضخمة تمسك بيده اليسرى وهي تتهدى خلفه بتثاقل مثل بطة سمينة خرجت من البحيرة تحاول اللحاق بصغارها، وفي يده اليمنى أجهزة جوال متنوعة، ومع هرولته يوحي لك المشهد بأنك تشاهد لصاً طماعاً قد خرج لتوه مذعوراً من أحد بيوت الأغنياء.

بُنية خالد الجسمانية الرياضية ورشاقتها ساعدته على حمل كل هذه الأحمال والسير بها بانسياب بين المسافرين الذين يملؤون صالة المطار، فخالد شاب وسيم ذو جسم رياضي متناسق متوسط الطول، منحه لون بشرته البرونزي جاذبية لا يمكن تجاهلها، وله ذقن خفيف الشعر محدد بعناية حلاق ماهر.. فيما كان شعر رأسه غير طويل وناصع السواد، وقد ساعدته بنيته الرياضية في قدرته على اختيار ملابسه بأناقة لافتة، من دون تكلف كبير.

وصل بحمله إلى كاونتر الخطوط الفرنسية، ومن بين أنفاسه اللاهثة رمى السلام بأحرف متقطعة على الموظف، ثم قدم تذكّره وجواز سفره فالتقطها الموظف بعجالة وهو يسأل، هل أنت مسافر إلى باريس؟!

فردّ خالد: إذا سمحت.

فقال الموظف: أمل أن تتمكن من ذلك، فالرحلة قد أقفلت منذ دقائق، ولا أدري ما الوضع المتاح، لقد تأخرت كثيراً عن الموعد!

تنهد خالد من دون أن يرد من هول الخبر، واكتفى بتوجيه نظرات التوسل والحزن إلى عيني الموظف.

ثبت الموظف عينيه على شاشة الكمبيوتر مدة متفحصاً الوضع وماذا عساه أن يفعل لأجل كل هذا الحزن الذي خيم على خالد، ثم عض شفته السفلى فقال، لدينا مشكلة!

أنت يا خالد حجزك على الدرجة السياحية، ولأن الرحلة قد أقفلت فقد تم أخذ ركاب الانتظار، وبالتالي ذهب مقعدك لراكب آخر، وليس لديّ من حل لأن تكون أحد ركاب هذه الرحلة سوى أن أنقلك إلى المقعد الوحيد المتبقي على الدرجة الأولى، ولكن بعد أن تدفع فرق التذكّرة! وعليك أن تقرر عاجلاً، فالوقت لم يعد ملكك!..

تجمّد خالد في مكانه، فالمبلغ الذي يملكه محدود، وكل ريال فيه موجه لأمر بعينه، وأي شيء طارئ في هذه الرحلة هو عبء كبير، وحتماً سيعصف بكل مخططاته الحالمة.

فخالد على الرغم من كونه يكره لغة الأرقام، ولكونه شاعراً يجيد السباحة في بحور الشعر، إلا أن والده سأله عند تخرجه في الثانوية العامة عن وجهته الجامعية؟!

فرد خالد بحماس كبير: أكيد كلية الآداب.

فما كان من والده إلا أن قال له بحسرة كبيرة تنبئ عن خيبة أمل واضحة: «الأدب ما يأكل خبز يا ولدي»!

ولكي لا يُغضب أباه، فقد اختار كلية الاقتصاد، برغم أن أكل الخبز كان آخر ما يفكر فيه! أنهى دراسته الجامعية بمعارك كثيرة، ولكنه في الأخير تخرج من دون تأخير، وعُيّن موظفاً منذ أربعة أعوام في أحد البنوك الشهيرة، كما أنه قد افتتح - وبجهود ذاتية - محلاً لبيع الهواتف والحواسيب وكل ما يتعلّق بالاتصالات؛ لعشقه الكبير للتقنية، وكذلك كمصدر دخل إضافي جيّد يضاف إلى مرتبه الشهري.

كان خالد منذ أيام الدراسة يحلم أن يذهب إلى باريس، مدينة العطور والنور والجمال، باريس.. المدينة التي عشقها من أحاديث الأصحاب، وصور العاشقين، وقصائد الشعراء، وروايات المهاجرين.

وكان قد أجّل - لأجل هذا الحلم - مشاريع كثيرة في حياته؛ لتوفير مبلغ الرحلة التي تستغرق عشرة أيام كاملة، بعد أن حسم من مستحقات النوم ساعات لمصلحة البرنامج اليومي لتصبح عشرة أيام بلياليها.

تأمل خالد كل الأحلام الباريسية التي نشأت وترعرعت في خياله منذ عدة سنين، وداهمته لحظة يأس وهو يشاهد أحلامه غدت كعصافير تفر مذعورة من صوت قوي، فطارت في كل اتجاهات الفضاء، وغدا يتأملها عصفوراً عصفوراً بحزن عميق، ولم يستفك من خيالاته الحزينة إلا على صوت الموظف الذي قال له بحزم شديد، قرارك يا خالد؟!..

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت السعودية، حينما دخل خالد بوابة الطائرة وفي يده بطاقة الصعود، وفي أطرافه رعشة لا يدري هل هي فرحة باريس، أم هي وجع المبلغ المالي الذي انتزعه الموظف من مخططاته المترعة بالأحلام.

بدأ يتفحص بطاقة الصعود لمعرفة رقم المقعد الذي لم يكن يتمناه أبداً، وتشتت بين حقايبه ليتدخل المضيف ويرحب به ترحيبة فرنسية جادة: «بنسوار مسيو» متناولاً بطاقته ثم يشير له إلى آخر مقعد في الدرجة الأولى.

خطف خالد بطاقته من يد المضيف ورمى بها تحت أسنانه لانشغال يديه بما تحملان، ثم ركز نظره باتجاه موقع المقعد بينما تركزت فيه نظرات الركاب الذين يملؤون المقاعد، وكأنه زائر أتى بلا موعد.

حينما وصل إلى المقعد لمع في عينيه بريق من نور شع من المقعد المجاور لمقعده، والقريب من النافذة، لحظة من الذهول انتابته حينما شاهد فتاة لم ير مثلها إلا في الروايات المحبوكة، وقف دقيقة صمت وهو يتأملها، وفتح فمه حتى سقطت بطاقة صعود الطائرة، وأحس بأنه يحلّق في الفضاء وكأن الطائرة قد أقلعت فجأة ومن دون سابق إنذار، أو أنه قد تحول فعلاً إلى طائر دعتة أجنحته إلى الطيران من دون أن يعلم.

لم يصدق ما يرى، فرمى كل ما يحمل على أرض الطائرة وتناول بطاقته ليتأكد من رقم مقعده، وحينما تأكد أن المقعد المجاور للفتاة هو مقعده بالفعل، أدار رأسه في كل اتجاهات الطائرة يقرأ في أعين الركاب، فقد شعر أن كل من بالطائرة يراقبه!

نبض قلبه نبضة مدوية، جعلته يتحسس صدره وينظر تحت قدميه ليطمئن أن قلبه لم يفر من قفصه.

نهره المضيف المتذمر الجاف، وطلب منه أن يضع أمتعته في مكانها ويسرع بالجلوس، فالطائرة تأخرت في الإقلاع بسببه.

بينما هو ينفذ تعليمات المضيف رمقته الفتاة بنصف عين في نظرة تفحص تشوبها التذمر، ما جعله يجزم أن الفتاة ستطلب من المضيف أن يبحث له، أو لها عن مقعد آخر.

ومن خشيته أن يسمع منها ما جال في داخله فكر بأن يبادر هو قبل أن تفعل هي، فقرب من المقعد وسلّم كعادته بصوت غير مسموع ومتقطع، ولم ينتظر ردها فواصل متسائلاً، ممكن أجلس؟!

ومن دون أن تنظر إليه أو مات بيدها بالقبول من دون نفس، حتى ظن أن المقعد ملك لها، وأنها هي من دفعت فرق التذكرة، هذا الفرق الذي يكاد يقتله في كل لحظة ويعكر عليه حماس الرحلة.

جلس في مقعده بلا حراك، فلم يكن هناك من شيء يؤكد بقاءه حياً إلا صوت أنفاسه المشتعلة ونبضات قلبه التي تملأ أذنيه بالضجيج.

في هذه الأثناء أشاحت الفتاة عنه بوجهها وأدارت رأسها باتجاه النافذة بحركة حازمة، جعلته يجزم أن ملامح رحلته لا تبشر بخير، بدءاً من حكاية التذكرة وانتهاءً بهذه الفتاة!

تشاغل عنها بعد أن كسب بعض الهدوء، وبدأ يبحث عن حزام المقعد حيث كان قد جلس فوقه من دون أن يدري من هول المشهد، ثم بدأ يقلّب في محتويات الجيب الذي أمامه، وبدأ بتفحص المكان والتعرّف إلى الجيران الذين سيرافقونه خلال الساعات المقبلة.

الطائرة التي يركبها من نوع إيرباص «A320»، صغيرة الحجم إلى حد ما، وتنقسم إلى درجتين فقط، الدرجة الأولى التي يجلس فيها خالد، والسياحية، حيث لا وجود لدرجة رجال الأعمال (الأفق)، وتتكون الدرجة الأولى من جهتين في كل جهة مقعدين، وخالد وجارته يجلسان في آخر مقعدين على يسار القادم من مقدمة الطائرة.

كان جاره الذي يجلس على الكرسي الواقع على يساره بعد الممر في الجهة الأخرى قصة كاملة، الرجل بملامحه الأوروبية الريفية كان كومة من اللحم، حيث غطى بلحمه كل

فراغات المقعد، وتدفق ما زاد على جوانب المقعد، بينما اختفى رأسه بين كتفيه.

نظر إليه خالد بفضول كبير وركز في كبر حجم أطرافه، وعلّق ساخراً بينه وبين نفسه حينما شاهد حذاءه الضخم الذي يشبه قارب صيد مهترئاً من بقايا رحلات الصيادين في الخليج: هل يعقل أن ما يلبسه هذا الغول في قدمه، وما تلبسه هذه الفتاة المبهرة له يحملان الاسم نفسه؟! فابتسم بخبث ما نبه الرجل الغول، فالتفت إليه، حيث بدأ بتحريك رأسه ببطء شديد وكأنه بلدوزر عبث الزمان بمرونته، فارتعب خالد من نظراته، وركز نظره في اتجاه آخر محافظاً على اتجاه رأسه، حتى يوهم الغول أن النظر لم يكن موجهاً إليه.

وبدأ يتساءل في نفسه هل من المعقول أن يكون هذا هو (shrek)، ذلك الغول الأخضر الذي أطلقته هوليوود بطلاً للفيلم الكرتوني الشهير؟!

واصل خالد تفقد كل من يشاركونه هذه الرحلة، لم يكن هناك من سعوديين، فكل الركاب تقريباً بملامح أوروبية وشرق آسيوية وأفريقي واحد، وربما أن توقيت الرحلة الذي يأتي في منتصف سبتمبر (أيلول) هو السبب في عدم وجود السعوديين، بحسبان أن العام الدراسي قد بدأ منذ أيام.

لكن صوتاً نسائياً دافئاً انساب من مقدمة الطائرة لسيدة سعودية تحادث طفلها الذي يبدو أنه لم يتجاوز الثالثة من العمر، وتطالبه بالهدوء بإغرائه بالحلوى والألوان وأوراق الرسم، وذلك بعد أن أزعج الركاب المجاورين لهم بضجيجهم البريء، حاول خالد أن يتبيّن صاحبة الصوت فشاهد سيدة سعودية تبدو في أواخر العشرينات من العمر، وبجانبها في الجهة الأخرى بعد الممر يجلس رجل رزين ربما كان يكبرها بقليل، يحادث الطفل بحزم، يبدو أنه زوجها، فخمن أن الزوج يعمل في السفارة السعودية في باريس، أو أنه يواصل دراسته، وإلا لما سافر في هذا التوقيت من العام، فضحك في داخله على هذه التفسيرات، وقال في نفسه بسخريته المعهودة: الله وأكبر يا الإنترنت، باقي تقول إنهم تأخروا بالسفر عشان يحضرون زواج بنت خالة زوجته!

ضحك من تعليقاته الساخرة ثم واصل تفحص بقية الرفاق في الطائرة.

خلف العائلة السعودية الصغيرة يجلس رجل سبعيني وبجانبه سيدة تقاربه في العمر، شعاع أبيض يلمع من شعر رأسيهما، ورزانة تفرض نفسها منطلقاً من هدوءهما الواضح، وصمتها الوقور، لم يتوقف عندهما كثيراً، لكنه ومع نظرة الاحترام والتقدير التي بدت منه تجاههما، إلا أنهما لم يسلما من تعليقاته اللاذعة فقال وهو يتجاوزهما بنظره:

«والله من الأدوية اللي معكم!»

قالها وهو ضاحك، ثم توقف بنظره صوب المقعد الذي أمامه، حيث يبرز منه رأس رجل إفريقي، بشعره المنكوش، الذي يوحي بأنه لم يلامس الماء منذ سنين طويلة، يتكوم فوق رأسه الضخم مثل عشبة صحراوية يئست من المطر، ولم يلفت نظره شيء آخر في الطائرة، فبقية الركاب جميعهم رجال أغلبهم أوروبيون.

عاد بنظره من جديد ناحية جاره الغول فاكتشف مصادفة أن هناك كائناً حياً بملامح آسيوية يجلس في المقعد الثاني بجوار الغول ناحية النافذة، وأصبح مقارنة بجاره العملاق كحبة سكر متآكلة، فأسف كثيراً على حاله، وحمد الله أنه لم يكن في مكانه!

زفر خالد بتذمر وقال: الله يستر من بقية فصول المسرحية!

كل هذا التشاغل الذي بذل مجهوداً كبيراً لأجله لم يكن كافياً لأن يخرج من حالة القشعريرة والارتباك اللذين اعترياه منذ أن شاهد الفتاه حتى أنقذه كابتن الطائرة بالإقلاع نحو مطار «شارل ديغول» في العاصمة الفرنسية باريس.

كان من ضمن مخططات خالد الكثيرة في هذه الرحلة، أن ينام منذ اللحظة الأولى التي يدخل بها إلى الطائرة حتى يكون في قمة نشاطه حين يصل إلى باريس، ليبدأ بقطف لحظات الرحلة منذ الثانية الأولى، ولكن يبدو أن كل ما رتب له سيكون مجرد أفكار نظرية، فكيف سيجرؤ جفنه على النوم وهو يجاور هذه الجميلة النافرة؟!

أقلعت الطائرة إلى السماء مثل طائر هرم وبذلت مجهوداً كبيراً في مغادرة الأرض، ما جعله يلتفت بخلسة وبخبت مقصود على جاره الغول، بينما استكانت جارته على مقعدها بهدوء قاتل، مثبتة نظرها على سقف الطائرة كحمامة بللها المطر، فأوت إلى عشاها تنشد الدفء.

كان خالد قد تجرأ لمراقبتها بحذر، وبدأ يتأمل هذا النور الغريب الذي يلمع في عينيه كلما لمحها أو حرّك هواء المكيف خصلات شعرها الثائرة.

فقال في نفسه وهو يتذكر أنه الآن على ارتفاع أربعين ألف قدم عن الأرض: إن من يسكن بجانبه ليس سوى مخلوق ملائكي تلقفته الطائرة فجأة في إحدى رحلاتها السابقة وظل ساكناً في هذا المكان مختفياً ولم يشاهده أحد غيره!

استوت الطائرة في الجو، وأضيئت الأنوار، ودبت حركة المضيفين لخدمة الركاب حيث بدأوا تقديم وجبة العشاء، ومع أن خالد لا يريد أن يأكل إلا أنه فكر جدياً أن يأخذ الوجبة ليقدّمها هدية لجاره الغول؛ علّه يرضى عنه ويكفيه شره، ولكنه عدل عن فكرته مطلقاً ابتسامة ساخرة.

رفض العشاء، ولكن جارته الملاك المنشغلة بالنظر من نافذة الطائرة لم تنتبه لوصول المضييفة التي تقدم العشاء، كانت خارج حدود الطائرة، وبدا وجهها المتجه إلى الأفق قمراً مكتملاً يضيء كل حدود الأرض وينعكس إلى داخل الطائرة.

حاولت المضييفة أن تناديهما، غير أنها لم تسمع فنظرت إلى خالد مستفهمة بلغة إنجليزية متمكنة: أهى تريد العشاء؟!.. مشيرة إلى الفتاة ظناً منها أنهما معاً!

قفزت في ذهن خالد فكرة رائعة، حيث عد المضييفة قد قدمت له فرصة على طبق من ذهب، وجزم أول مرة في رحلته هذه أن الحظ قد استيقظ من سباته العميق.

واعتبر خالد انشغال جارته فرصة عظيمة لبدء مشوار الحديث معها، فهو سيقوم بإخبارها عن وصول العشاء، ومن ثم سيساعد على تقديمه لها من خلال تمرير ما تقدمه المضييفة،

وهكذا خطوة خطوة يكون قد تجاوز خجله، وتمالك أنفاسه، فيسهر مع حديثها ليلة حاملة في حضرة النجوم.

ابتسم حين نسج تفاصيل المشهد التالي في خياله، في الوقت الذي كان ينظر فيه إلى المضيئة غير مدرك أنه في عوالم أخرى.

غضبت المضيئة لابتسامته البلهاء التي لا تفهمها، فصرخت به بأدب وبحزم شديد: يا سيدي أسألك هل تريد عشاء؟!

عاد خالد إلى الوجود، بعد أن جفل من صوت المضيئة وعباراتها الصارمة، ثم استدار نحو جارته وبثقة كبيرة، فقال: لو سمحت، لو سمحت..

أدارت الحسنة رأسها إليه، وبدأت بالنظر نحوه بملامح جادة، ومن دون أن تتكلم،

فقال خالد: مساء الخير..

ردت الفتاة بحركة برأسها جعلته يشك، بل يتيقن أن جارته التي تجاوره خرساء من دون جدال، فهذه هي المرة الثانية التي يحدثها، بعد أن سألها عند وصوله إلى مقعده عن إمكانية الجلوس، وكان ردها في الحالتين بالإشارة فقط!

تجاهل ما فكر به وأراد أن يحسم أموراً كثيرة بسؤاله التالي:

فقال: آسف لإزعاجك (بس المضيئة تسأل تبين عشاء؟!)

سأل خالد هذا السؤال الذي لا بد أن يحمل إجابة، وظل متحفزاً للنتيجة..

صمت الفتاة لم يدم طويلاً فقالت بامتنان: لا، شكراً..

نسي خالد ضياع الفرصة الثانية، وتبخر أحلامه التي خطط لها قبل ثوانٍ، وتبسم لأن شكوكه ليست سوى خيالات خائف.

أبلغ المضيئة بردها ثم استدرك بعد أن زالت مخاوفه، أن الفرصة التي خطط لها قد ضاعت، بل إن أسلوبها الحازم أعاد خطواته التي كانت تتقدم ببطء إلى نقطة الصفر فخيم الإحباط عليه من جديد.

ومع ما أصابه من حزن إلا أنه لا يزال يحتفظ بخيط رفيع من الأمل، لهذا خشي أن تهدم كل قصوره إلى الأبد، وتستسلم جارته إلى النوم في الوقت الذي فقد فيه هو كل سبل النوم، ولكن لم تمضِ دقائق كثيرة حتى بدأت الفتاة تتحرك في مقعدها كنسمة صيف باردة، ترتب أوضاعها وتفتح شاشة العرض بمقعدها استعداداً منها لسهرة سينمائية في بحور الفضاء، ومع كل حركة كانت تقوم بها، كان خالد يشعر بخفقان لا يستطيع التحكم به، ما جعله يضع كفه على فمه خوفاً من أن تفضحه أنفاسه المستعجلة كقطار فقد قائده السيطرة عليه.

ولكنه استغل انشغالها بترتيب أوضاعها وبدأ يتفحصها بعجالة تفحصاً سريعاً ودقيقاً جداً.

لفت انتباهه خلو أصابع يديها من المجوهرات والخواتم والدبل، غير أن الصبغة الوردية التي تلمع من أظفارها الرشيقة حد التعب أبهجت ناظره..

ثمة ساعة «كارتية» كبيرة في يدها اليسرى، مدورة الشكل، تلمع فوق قوسها الخارجي حبات صغيرة من الألماس، ويحملها حزام بني اللون يلتف حول معصمها الناضج بحنان كبير، كطفل أنهكه اللهو والمرح ونام على كتف والدته.

وخلف الساعة تتراقص أجراس صغيرة متدلّية من إسوارة فضية اللون مطعمة بأحجار بنية وفيروزية أضفت ألماً خاصاً لأناقتها وجاذبيتها.

فيما لا تلبس في عنقها سوى سلسلة ذهبية صغيرة جداً يختفي ما يتدلى منها تحت شعرها الأسود وأجزاء من سترتها.

أما لباسها فينم عن ذوق خيالي، سترة طويلة بلون البيج ذات أكمام طويلة وسروال من الجينز الداكن، أما حذاؤها فهو حذاء بسيط (فلات) أسود اللون من ماركة «تودز»، وبجانبها حقيبة يدوية سوداء كبيرة نوعاً ما، كانت من ماركة «شانيل» الشهيرة، ويبدو أنها اختارت ملابسها وأشياءها بعناية كبيرة؛ لتتناسب مع حالة السفر، ما ينم عن ثقافتها الواسعة.

بدأت تتابع أحد الأفلام من دون أن تضع السماعات، ومن دون أن تبدي أي اهتمام بوجوده، سوى أنها تسرق النظرات - أحياناً - لمراقبته من دون أن يشعر بها بينما جلس هو يتأمل حركاتها وسكناتها خلسة، ومع كل حركة منها تتطاير بقايا عطرها في أنفاسه، فيتساءل - وهو مغمض عينيه - هل حقاً أن الورد ممكن أن ينبت بين السماء والأرض؟!!

عمّ الهدوء أجزاء الطائرة وأطفئت الأنوار، واستسلم بعض الركاب إلى النوم، وبعضهم الآخر انشغل، إما بالقراءة وإما بمتابعة الأفلام، كحال جارته، وخيم سكون عظيم أرجاء المكان، سكون لا يقطع رتابته سوى أزيز الطائرة السابحة في الظلام.

حاول أن يتغلب على حالته السلبية، وكلما فكر في فكرة استسخفها، فهو لا يريد أن يشغل نفسه عن التفكير بالفتاة، ولا يريد أن يفعل أمراً قد يفقده ولو جزءاً من الفرصة في الحديث معها، ولكن الوقت الطويل للرحلة جعله يقتنع بموضوع القراءة.

نهض من مقعده وتناول حقيبة الكمبيوتر المحمول وأخذ منها كتابين، وضع واحداً منهما في الجيب الذي أمامه، وبدأ يقرأ في الآخر، وكان كتاباً عن باريس، فيه بعض المعلومات عن أهم المواقع السياحية، وبعض ترجمة لكلمات فرنسية إلى العربية، وخريطة لشوارع باريس، وصور للمعالم السياحية.

سرح قليلاً مع الكتاب أو حاول السرحان، وفجأة وفي كل هذا السكون شخر جاره الغول شخيراً مرعباً، كأنه صوت قنبلة أو قذيفة سقطت فوق الطائرة، فزع خالد من هول الصوت حتى كاد أن يقع من فوق المقعد، متلفتاً بذهول في كل الاتجاهات، يتفقد كل من حوله، وليتأكد أنه لا يزال في الطائرة وليس في الفضاء، وحينما تكرر الصوت عرف خالد أن الغول قد بدأ بعزف مقطوعته الموسيقية، التي تشبه إلى حد كبير صوت محركات الطائرات المقاتلة، التفت خالد إلى جهة جارته من دون قصد وبعفوية كبيرة وفي داخله ألف سؤال، فلمح أول مرة ابتسامة خجولة تخفيها شفتان مكتنزتان كحبات عنب حان وقت قطافها.

كاد أن ينطق في هذه اللحظة التاريخية، ولكن كلماته تاهت عن حنجرتة ونسيت شفتاه شكل الكلام، فلاذ بصمته برغم أنه شعر أول مرة، منذ أن جاور هذا الملاك أنه في عالم آخر.

عاد يتصفح كتاب باريس، وفي كل صفحة لم يكن يرى سوى تلك الشفاه المبتسمة، والعيون الغارقة بين الصحو والنعاس.

تمنى لو أنه يملك الشجاعة الكافية ليبداً معها حديثه، ولكن خوفه من ردة الفعل جعلته يختار صمت الأمل على حديث المغامرات غير المحسوبة، التي قد تنقله من هالة السحر التي تهيم عليه إلى هالة من الخيبة والضياع، هذا عدا أن تجربتيه السابقتين الفاشلتين معها قد قضتا على كل ما لديه من شجاعة، ثم إنه يؤمن تماماً بمبدأ «إذا لم تكن متأكداً من الفوز عليك أن تكون صياداً» لهذا ولكل الخوف السابق توقف عن التفكير.

لم تكن جارته ككل الفتيات التي تخيلها في أحلامه الشاعرية وقصائده الغارقة في الرومانسية، إنها من نوع مختلف، هدوؤها القاتل الذي يخيف الجنود، وجسدها الناضج كتفاحة نبتت في سهول إيطاليا، وقسماتها المكتملة كلوحة رسام أمضى عمره في رسمها، جعلته يتمنى لو يتمكن من الخروج إلى السماء ليستنشق الهواء حتى تعود إليه الحياة.

قفز فجأة إلى دورة المياه في مقدمة الطائرة في لحظة أحس معها أنه لا بد أن يقوم برشق وجهه المذهول بالماء البارد، ويسمح للدماء التي ظلت متوقفة عن الجريان في أجزاء جسده بالتحرك من جديد.

مرت أربع ساعات من عمر الرحلة، والحال كما هو، يقلّب خالد كتاباً لا يقرأه، وتتابع جارته فيلماً تبدو منهمكة فيه، وعازف أوركسترا الشخير يقصف من دون رحمة على مسامع الركاب، وعجب خالد كيف تستمتع جارته بفيلمها من دون سماع الصوت وتحت دوي القصف المتواصل.

كان خالد يراقب الساعة بكل ثوانيتها، ويحسب ما تبقى من الوقت، وغدا شعوره تجاه زمن الرحلة الذي كان يعتقد أنه ممل وطويل، مثل شعور لاعب يتأخر فريقه بهدف في مباراة حاسمة، ويرى أن دقائق المباراة لبست ثوب الثواني أو أقل.

لم يعد هناك من سبيل للبدء في حديث مع هذه الجارة التي فجرت سكونه، وبدأ يستسلم للواقع الذي فرض نفسه بقوة، فتهياً لجعل كل ما مر به جزءاً من ذكريات عابرة مرت كسحابة هاربة.

رمى كتابه الذي في يده في جيب المقعد وتناول الكتاب الثاني ليتسلى بما فيه بقية زمن الرحلة.. الكتاب الذي أخذه يشبه المجلة في الحجم، يكسوه البياض، ومنقوش فوق صدره الناصع عنوان من كلمة واحدة «ومض»، إنه آخر إصدارات الشاعر الجميل ومهندس الكلمة الأمير بدر بن عبدالمحسن، هو أكثر من ديوان، ففيه أشعاره وبعض من جنونه ورسوماته..

واصل خالد تقليب صفحات الديوان، وقد تناسى في هذه اللحظة كل شي قد عاشه خلال الساعات الماضية، وأبحر مع أشعار البدر وعباراته الرائعة.

بجانبه كانت الحسناء الملائكية تتحرك في مقعدها بتملل ملحوظ، وكأن جمرًا قد نبتت تحت قدميها.. أمسكت جملة من خصلات شعرها بأصبعها وهي متجهة بجسدها ناحية

خالد وتنظر إليه، وبدأت تلفها دوائر فوق أصبعها بحركة يبدو أنها اعتادتها كثيراً، وإن كانت هذه الحركات اللاإرادية تنبئ بحالة من القلق والارتباك التي تعتريها.

بالمقابل لم يكن خالد بعد أن أعلن انسحابه من حالة التفكير بها يلحظ حركاتها المرتبكة والتغير الذي اعتري جارتة الحسنة، حيث سبح بمحيطات البدر حتى الأعماق، وفجأة ومن دون تخطيط رن في أذنيه صوت كصوت طائر مهاجر راحل في عتمة الليل!

هذا ديوان البدر.. هكذا نطقت الحسنة الصامتة بهدوء لا يمكن تخيله؟!

شعر خالد أن عاصفة عاتية قد هبت من النافذة، هجمت على مسامعه من دون رحمة حتى كادت أن تحوله إلى أنقاض متناثرة.

تمالك نفسه والتفت ناحية الصوت بنظرة صريحة مباشرة لأول مرة منذ أن سكن هذا المكان.

عانقته رائحة عطر سابحة تطايرت مع حروفها الخجولة، فتمنى لو أنه يستطيع أن يصرخ بأعلى صوته!

لم يكن مستعداً لهذه المفاجأة خصوصاً بعد أن استسلم للهزيمة، وتعاهد مع نفسه على النسيان!

فتساءل بينه وبين نفسه بعجالة، هل يمكن أن يكون ما سمع هو هدف الثواني الأخيرة الذي يعيد الحياة فجأة في العروق المتيبسة؟!

توجه بكل جوارحه نحوها، لم ينطق ولكنه نظر إليها نظرة لا يخشى عواقبها، وجهها الطفولي الذي تمرح في قسماته البراءة، وعيناها المملوءة بتفاصيل الحذر أرهقت كل ما بقي من وجوده على هذه الطائرة العجيبة!

ومن دون أن ينطق ولو بكلمة، هز رأسه مستفهماً وكأنه لم يسمع! ما جعلها تتمنى لو أنها لم
تنطق أبداً!

استفهام خالد الصامت ورطها كثيراً، وكادت أن تمضي ساعات الرحلة القليلة المتبقية بين صمته وصمتها.

وفجأة شخر الغول شخيراً يبدو أنه كان مختنقاً تحت أكوام اللحم منذ عدة أشهر، لم تكن شجرة واحدة، بل شجرات ثلاث متنوعات، الأخيرة منها كانت أطول وأعرض من أخواتها، وتنتهي بنغم متموج وكأن الغول يحتفل بدخول الطائرة في الأجواء الأوروبية على طريقته الموسيقية الخاصة، تملل من صوتها النائمون في الطائرة، بينما تبادل خالد وجارته النظرات، وانفجرا في حالة من الضحك حتى كادا أن يوقظا الركاب!

حطمت معزوفة الغول الجديدة كل سدود التردد والخوف والخجل، التي ظلت متماسكة منذ أن بدأت الرحلة، فسالت دموعها من الضحك حتى بللت المشاعر.

فكر خالد أن يقفز إلى صديقه (shrek) فيقبله بكل امتنان على هذه المقطوعة السحرية، وهذه القنبلة الثلاثية، التي أيقظت الماء ليتدفق بانسياب بين الغيوم، عيوناً مائة لذة للشاربين.

لم تكن جارته الفاتنة بأحسن حال منه، فهي منذ اللحظات الأولى التي أقبل بها خالد صوب مقعدها شعرت بجاذبية غريبة تجاهه، لا تعرف سبباً لها، وعجبت من تسرع مشاعرها وهي الفتاة الموزونة والمتعقلة.

شعور غريب يتلبسها، لم يحدث أن مرت به برغم كل ما شاهده في ترحالها ودراساتها، حيث لم تفلح معها كل معاكسات الشباب.. ومحاولاتهم المستميتة لكسب ودها، حتى تشكل حولها سياج فولاذي طوال سنين عمرها، ما جعلها تشك في أنوثتها ورقتها، ولكنها لم تكن تقبل أن تكذب على أحاسيسها، أو تجبرها على خيار لا يقنعها حتى لو بقيت بلا حب.

كانت تتابع كل ما يقوم به خالد، متابعة دقيقة ومتواصلة، حتى وهي تظهر أنها لا توليه أي اهتمام، تمنعها الواضح كانت له أسبابه، فهي أولاً كانت تريد أن تمنح ما تشعر به الوقت

الكافي لتتأكد من جدية مشاعرها.. ثم لتتأكد أيضاً أن جارها الذي هبط من السماء يملك من الرزانة ما يجعلها تسمح له بتجاوز الحاجز الفولاذي الصلد صوب مشاعرها، الذي ظل عمراً طويلاً صامداً.. إضافة إلى ذلك فهي لا تفهم ماذا يجب أن تفعل في مثل هذه المواقف التي يتحرك بها نبضها أول مرة في حياتها.

كانت تبتسم خفية عند كل حركة يقوم بها، خفة دمه الملحوظة، ووسامته، وأناقته، واحترامه لها بعدم مضايقتها جعلتها تتشبث بما تشعر به بكل قوة، وكم تمت لو أنه يجبرها عنوة على تبادل الكلام، ولكنه لم يفعل!

ولأنها أصبحت تنتظر هذه الفرصة فقد امتنعت عن وضع سماعات الشاشة على أذنيها؛ خوفاً من أن تفقد فرصة سماع صوته الذي قد يأتي برغم كل الظروف، كما أنها لا تريد أن يفوت على مسامعها أية همسة قد يهمس بها حتى لو لم تكن لها.

وكادت حينما سألتها في المرة الثانية عن رغبتها بالعشاء أن تستسلم وتتجاوب معه، غير أن الموقف لا يسمح بذلك، فالموضوع الذي تحدث به جارها الوسيم لم يكن موضوعاً متعلقاً بهما، لهذا ردت بتلك الرسمية المبالغ بها.

فكرت حين قفز إلى دورة المياه أن ترمي شيئاً من أشياءها في مقعده لعله يكون سبباً في بدء الحديث بينهما، ولكنها تراجعته بسرعة فكل فكرة تفكر بها تظن أنها مكشوفة، وهي بالأخير لا تريد أن ترمي بنفسها عليه، حتى وإن كان الشعور الذي يدق أبواب قلبها أول مرة يجعلها بلا عقل في هذه اللحظات.

ماتت ألف مرة وهي تراقب الساعة، واستمرار صمت جارها زادها إحراقاً، وحينما تأكدت أن جارها لن يفعل، خصوصاً بعد أن لمس منها الجفاف في الموقفين السابقين قالت في نفسها، الموت أرحم من انتظاره، فاستغلت قراءته ديوان البدر، فجمعت كل ما تملك من قوة وسألته سؤالها التاريخي، وهي مغمضة عينيها.

عثر خالد على جرأته المفقودة مع احتفاظه بالحدز، فسألها بثقة المتحرر من القيد: وش
قلت قبل معزوفة الغول؟!

تبسمت ابتسامة أظهرت اللؤلؤ المختبئ في فمها البكر، وسكتت وهي تهرب بنظرها إلى
الأعلى، ثم قالت:

كنت أسأل.. اللي أنت تقراه هو ديوان البدر؟!

وعلى الفور أدرك خالد أن الملاك الذي يحادثه ليس سوى ملاك سعودي من طينة أرضه،
وعمق صحرائه الواسعة، فتبسم ابتسامة توحى بالرضا، ثم رد على سؤالها بسؤال..

أنت تقرين للبدر؟!

ردت: ومن ما يقرأ له؟!

قال: يا كثرهم!

فواصل الشرح بحماس كبير..

كل غبي تشوفينه، أو إنسان حاقد، أو إنسان معقد، اعرفي أنه ما يقرأ للبدر، ولا يفهم وش
يكتب البدر!.. بدر يحسس اللي يقرأ له أنه إنسان، يخليك تحب ولا تكره، يشاركك كل
لحظاتك من فرح وحزن وحب..

قاطعته بسرعة: شوي، شوي، كل هذا يسويه بدر؟!

قال: يكفي أن إحساسه جانبي لباريس، والأهم أن ديوانه كان سبب أني أسولف معك ها
اللحظة!

قال آخر كلماته هذه وخجلت الفتاة ثم نظرت إلى أصابعها نظرة عفوية لا إرادية للهروب من خجل عبارته..

ثم عادت بنظرها إليه وقالت: معاك حق، تصدق، أنا أحفظ قسايدك يمكن أكثر من البدر نفسه..

سكت متعجباً، فقال: يا حظ بدر!

فامتلات وجنتيها بحمرة خجل جديدة، وتعجبت من جرأته فهي لم تكذ تتحدث معه، ولكنها رغم هذا التعجب لم تخف رضاها على هذا التعليق..

لم يكن خالد عاجزاً عن الانطلاق بحديثه الممزوج بين الهزل والجد، ولم يكن غير مقتدر لأن يكسب محدثه بثقافته العالية، وسمو مشاعره، لكنه كان يحتاج إلى الفرصة المأمونة، كان يبحث في ركام ارتبائه عن المفتاح السحري الذي يفتح به الأبواب المغلقة.

ولم يكن يتوقع أن جارته الرقيقة أكثر شجاعة منه، وأكثر تجاوباً مع ما تؤمن به مهما كانت النتائج!

تجاهل خالد خجلها، فحول الحديث فجأة إلى مسار آخر وقال: أنا ينادوني بالدوام خالد، وأمي تناديني خلودي وبالحرارة «الغثيث» وشوية ألقاب يحبها قلبك..

ضحكت بعمق لخفة دمه، ولمعت من أعماق عينيها نظرة إعجاب يبدو أنها ترعرت وكبرت خلال الساعات الماضية، لمعت كبرق خاطف لم تستطع إخفاءها، برغم تماسكها الملحوظ، وقالت بخجل: لولو..

خالد: الله، الله يا حلو اسمك..

وترد بخجل: شكراً..

خالد: بصراحة بقول شي بس أبيق تعذريني؟!

تبتسم بترقب: أكيد أعذرک..

خالد: عطرك خطير، خطير، حسيت وأنا أشمه أني جالس بمعمل عطورات في فرنسا، وش اسم ها العطر؟!

تضحك لولوة بتفاخر: مو لها الدرجة، بس شكك خبير عطور؛ لأن العطر هذا ما يبيعونه بالسعودية، هو عطر فرنسي أخذته قبل فترة من باريس..

تناولت العطر من حقيبتها، زجاجة سوداء بغطاء أسود ومدته لخالد وهي تنطق اسمه «visa de Robert piguet»..

تناوله خالد وهو يضحك قائلاً: هذا ما هو اسم عطر هذا وصف حارة!

تضحك ثم تقول: دامه أعجبك خذه هدية..

خالد: هدية يعني بلاش وإلا تبين تبيعينه عليّ، ترى ها الحركات هذي مرت عليّ كثير!

ضحكت لولوة من أعماقها لتعليقه غير المتوقع وسخريته الغريبة، وجرأته الواضحة والمنطلقة في الكلام، فقالت: إلا هدية ببلاش، خذه وإلا ترى أهون..

ضمه خالد بحب بين يديه وقال: تسلمين والله، لكن صدقيني أنا أستهبّل، مستحيل ما أستهبّل هذا طبعي، أشكرک أنا أكتب اسم الحارة أقصد العطر وأشتره إذا وصلت باريس..

لولوة: لا والله إلا تاخذه ترى ما يرد الكريم إلا اللي أنت خابر..

خالد: هاه شفتي أن السالفة مذلة من أولها..

ضحكا، ثم أخذه خالد برضا خجول ووضعه في جيب المقعد وهو يتمنى لو يتمكن من إفراغه الآن في أنفاسه، مبدياً شكره لهذه الهدية الثمينة ولكنه علّق:

العطر بصراحة له مدلولات كبيرة عندي، العطر أحسه يعكس نوعية الشخص اللي حاطه، بعض الناس تحسبهم من تشمين عطورهم أنهم يشتغلون بوحدة مكافحة البعوض!

أنا دايم أقول إن نوع عطرك يعكس شخصيتك حتى قبل ما تتكلم..

وجدت لولو هذا الشرح الجميل فرصة تريد استغلالها فقالت: طيب يا الخير، وأنا وش قال لك عطري عني؟!

خالد: عطرك يا لولو قال لي إن كل تواريخ الميلاد المكتوبة بشهادات الميلاد مزورة، وأولهن تاريخ ميلادي، وأن التواريخ الصحيحة هي اللي تكتبها الأيام والمصادفات، بأي زمان، وبأي مكان، حتى لو كانت بين السماء والأرض..

كادت لولو أن تفقد الوعي من هذا الوصف الرومانسي الساحر، وشعرت بأنها ليست في مقعدها بل فوق جناح الطائرة.

تأكدت الآن أن نبضات قلبها التي تسارعت محدثة صوتاً كالطبول في قفصها الصدري منذ أن شاهدت خالداً كانت تدرك روعة هذا الشاب الوسيم الآسر، ومع كل دقيقة تمر كانت تشعر بأنها تتعلّق به بسرعة لا تستطيع معها كبح مشاعرها.

أخرجها صوت خالد فجأة من حديثها لنفسها فقال: ما ودي أتطفل بأسئلتني لكن تحملي لقافتني، كنت أبي أسأل أنت رايحه لباريس تدرسين ولا سياحة؟!

لولو: لا خلاص وداعاً للدراسة أنا رايحه سياحة..

خالد: خلصتي دراسة، وإلا طنشتي؟!!

تضحك لولوة: لا طنشت ولا شي، أنت لو سمحت الحين قاعد تتكلم مع طبيبة أسنان «أد الدنيا»، توني متخرجة، وهذا اللي أخرني عن السفر، أهلي لهم أسبوعين بباريس عند أختي مشاعل اللي تدرس الماجستير في باريس، وأنا تأخرت عشان إجراءات التخرج وهذاني رايحة لهم..

في هذه اللحظة تمنى خالد لو أن أسنانه تلتهب فجأة، فيفتح فمه مستسلماً لأناملها الساحرة التي حتماً إن لمست أسنانه ستشفي قلبه التائه بين أضلعه، ولكنه قال بإعجاب: صح عليك يا لولوة، والله شي روعة، وتخصص الأسنان تخصص ممتاز، ربي يوفقك.

لولوة: أقول، أنت الحين مشغل علي كك المحقق «كولومبو» من بديت وما عطيتني ولا فرصة واحدة، خلاص الحين أنا اللي أبي أحقق معاك..

خالد: بدون ما تتعبين نفسك أنا جاهز أعترف بكل شي، بس أنت أشري لي وتجيك كل العلوم «يضحك» ويواصل، أنا موظف في بنك، أكتب شعر أحياناً، أمي وصفت لي كل بنات الرياض تبيني أتزوج وأنا أتهرب، مقاس رجلي اليمين 41 واليسار 45، رايح باريس أشرب قهوة، وأسمع فيروز، تبين أعترف وش سويت بمدرس العلوم بثاني ابتدائي.. بعد..

لولوة - وهي تضحك بكل جوارحها -: بس، بس، خلاص، والله أنت ما تصلح تكون شريك في أي جريمة، (تضحك) ولكنها تقطع عليه مواصلة الكلام: طيب ليش مسافر لحالك، فيه أحد يستانس وهو لحاله؟!

خالد: أحيان حلو الواحد يسافر لحاله، لكن أنا كنت متواعد مع صديق الطفولة عبدالله بس قبل كم يوم من السفر اكتشف الأخ أن زواج ولد عمه بكرة، قلت له رح صوّر مع ولد عمك يا الدب والحقني بعدين، أنا والله ماني مضيع الحجز، وراح يجي عندي بباريس بعد أربع أيام إن شاء الله..

لولوة: كم تبي تجلس؟!

خالد: بالكثير عشرة أيام..

تحول وقت الرحلة القليل المتبقي إلى أحاديث متنوعة، كان خالد ولولوة يسابقان الزمن ليعرف كل واحد منهما أكبر قدر ممكن، وما هو متاح من المعلومات عن الآخر..

حديث منوع تم بينهما وكأنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنين، وعطرت ضحكاتهما أجواء الطائرة..

ولكن، ومع كل هذا الحديث المنطلق الرومانسي والتلقائي، إلا أنه لم يحمل في أي لحظة من لحظاته أي إشارة لعلاقتهما، وتوقفت جرأتها وتناغمها التام عند حدود الكلام العام والتعليقات الساخرة، لم يتجرأ خالد ولا لولوة على موضوع تبادل أرقام الهواتف، أو الإيميلات كحل أقل إحراجاً..

عادا إلى المربع الأول، فكلما بدأ أحدهم بالحديث يبدأ الطرف الآخر بالسرхан والتساؤل بينه وبين نفسه عن كيفية التجرؤ على طلب الرقم من الآخر..

خالد قرر بصمت أنه لن يتجرأ ولن يبادر حتى تطلبه لولوة منه، أو تلمح بذلك خوفاً من أن تفهم على سبيل الخطأ أنه يستغل هذا الحديث العابر لعلاقة أطول، ومن ثم سيفقدها إلى الأبد؛ ولأنه يخشى المغامرات غير المحسوبة فقد أحال الموضوع من دون تردد إلى رغبته..

بينما قررت لولوة ألا تطلب شيئاً بحسبان أنها بادرت وانتهت مساحة ما تملكه من شجاعة عند هذا الحد، هذا غير أنها تشعر لكونها بنتاً، أنه من المخجل أن تبادر هي بهذا الموضوع نهائياً، وقالت في نفسها: الدور عليك يا خالد! والتفتت بتودد نحوه أملاً منها أن يكون قد سمع ما قالت في نفسها.

تسارع وقت الرحلة المتبقي وأضيئت أنوار الطائرة، وتم تقديم وجبة الإفطار، ولم يأكلا أيضاً، ربما بسبب الإحراج، والأكيد حتى لا يسرق وقت الإفطار دقائق هما أحق بها لانتظار

الآخر.

شع ضوء خفيف من نوافذ الطائرة حينما أقبلت على باريس باتجاه مطار شارل ديغول
منبئاً بانبلاج الفجر، وأعلن قائد الطائرة للجميع الاستعداد للهبوط..

استكان خالد ولولوة كل في مقعده، واستسلما لأفكارهما..

ها هي ذي الطائرة ستهبط بعد دقائق، وسيتفرق الجميع، وتضيع كل هذه اللحظات الرائعة
مثل دخان تتقاذفه الريح.

صمت رهيب نشأ بينهما، وغطتهما سحابة حزن لم يكونا في حاجة إليها في هذا اللحظة،
فما يحدث الآن هو من صنع أيديهما، فالموضوع أبسط مما يعتقدان، غير أن لا أحد منهما
يدرك ذلك، ضاعا بين افتراضات الخوف والكرامة، ومع أن الحب حين يهطل يلغي كل
الافتراضات، لكن في مثل هذه المواقف يعد الخجل أكبر الحواجز التي تموت عندها
حكايات الغرام!

بدأ كل واحد منهما بنسج أفكار للخروج من هذا الموقف، غير أن الأفكار كلما نضجت تلغيها
كل أفكار الخوف السابقة..

وصلت الطائرة إلى أرض المطار، بعد أن اخترقت في هبوطها كثباناً من الغيوم الماطرة،
وبدأت تتهاوى بخفة فوق المدرج مسرعة صوب مكانها الذي ستستريح فيه بعد أن طوت
القارات بجهد كبير.

تزايدت نبضات قلوبهما مع كل متر تقطعه الطائرة، فالفرص تنتهي بشكل كبير..

لحظتها تمنى خالد أنه لم يدفع فارق التذكرة، ولم يعيش هذا الموقف، بينما ندمت ولولوة
على اللحظة التي تجرأت فيها وتحدثت إليه، فالحالة التي يعيشانها الآن سرقت منهما
سنين بأيامها ولياليها من العمر.

وفي أثناء ذلك وصلت الطائرة إلى مستقرها، وبدأ الركاب بنزع أحزمة المقاعد، وقام الجميع بحمل حقائبهم، ومثلهم فعل خالد الذي حينما وقف أخذ زجاجة العطر من جيب المقعد وخبأها في إحدى حقائبه، وبدأ يتناول الحقائب استعداداً للخروج من الطائرة.

بينما بقيت لولوة متجمدة في مكانها كطفل صغير تاه عن أبويه، وفي عينيها ألف دمعة تتمنى لو تستطيع أن تذرّفها دفعة واحدة، في الوقت الذي لم تتمكن فيه من إيجاد تفسير واحد مقنع لما تشعر به من خيبة وحزن.

فخالد ليس سوى راكب جاورها في رحلة سفر، مثله مثل المئات الذين يمرون من أمامها في كل رحلاتها، فلماذا كل هذا التشبث به، خصوصاً أنه يتجاهلها بكل تعمد! هكذا كانت تقول لنفسها.

وقف الركاب في صف واحد، ووقف خالد معهم بجانب مقعده، لكن الركاب الذين أمامه بدأوا بالسير واحداً خلف الآخر بانسياب تام، غير أن هذا الجريان البشري قد توقف عند خالد الذي حاول أن يكسب أي ثانية من الممكن أن تجعله يعيشها عمراً آخر، بمحاولة ترتيب حقائبه، وكأنه لا يدري أن الدور قد وصل إليه، لكن حركاته هذه كانت مكشوفة لمن هم خلفه، ما دعا الراكب الذي يقف وراءه والقادم من الدرجة السياحية أن يطلب منه التحرك.

لولوة تنظر إليه بحسرة، وخالد ينظر إليها بوجع كبير..

وأمام ضغط الركاب اضطر خالد للتحرك ملتفتاً بعجالة إليها ثم قال: في أمان الله..

غادر خالد بكل ألم، ولم يكن يدري لماذا كل هذا الخوف الذي اعتراه حتى لا يجروء على تقديم رقم هاتفه لها..

لم يتبق في الطائرة سوى لولوة والرجل الغول الذي فضّل أن يتحرك الجميع لكي يأخذ حريته بالخروج من الطائرة..

لملت لولو أشياءها، وجروحها، ووقفت بهوان كبير، وكانت قبل أن تقف تظن نفسها أنها لم تعد تستطيع المشي..

بالمقابل وقف الرجل الغول بعد عراق مع المقعد، وتحرك الاثنان إلى باب الطائرة، تقدم الغول ولولو من خلفه، وحينما تجاوز الغول باب الطائرة وانكشف الطريق للولو، ظهر وجه خالد فجأة متيبساً ومرتجفاً ما جعل لولو تشهق من دون أن تدري فيما غرقت عينها بمائها المالح..

تقدم خالد لها بشوق كبير وخوف أكبر وقال: هذي بطاقة صعود الطائرة طاحت منك وخذيتها، بس نسيت أعطيك إياها..

كان خالد حينما ذهب إلى دورة المياه قد قرر أن يكتب لها رقم هاتفه خلف بطاقة صعود الطائرة حتى قبل أن يبدأ معها في الكلام، فهو وإن كان يعلم بأنه لن يتهور، إلا أنه يأمل أن الحظ قد يبتسم له فجأة، ثم لا يتمكن من كتابة الرقم ففضل تجهيزه مبكراً تحت رحمة الرجاء، ولكن ومع أنه قد تحدث معها وقربت المسافة بينهما إلا أن خجله وخوفه أوصلاه، وأوصلاه إلى هذا المشهد المميت..

خطفتها لولو بشغف وقلبتّها بسرعة من دون أن تقرأها لكنها لمحت رقم جوال وبعض الكلمات الشعرية قد كتبت خلفها..

دستها في حقيبتها اليدوية بسرعة وهي تضحك بكل جوارحها، وانطلقت في الممر الممتد من الطائرة إلى المطار بسيقانها الرياضية وشعرها المتمرد كمهرة تلهو في مرج أخضر..

فيما تحرك خالد بسرعة تاركها خلفه وكأنه جندي رمى قنبلة يدوية وهرب منها، وحين تجاوز الرجل الغول في آخر الممر.. ابتسم له الغول وغمز بجفنه غمزة شعر خالد أنه يشاهد بوابة من البوابات المخصصة لمخازن البضائع وليست عين رجل، ثم رفع الغول إبهامه الذي يشبه أحد الأبراج السكنية المأهولة في الهواء، تعبيراً عن إعجابه بما فعل خالد، فلم يتمالك

خالد نفسه من الضحك، واقترب من الغول بحماس ضارباً يده بيد الغول الضخمة، فضحك (shrek) ضحكة كادت أن تهدم ممر الركاب بمن فيه،

ذاب خالد في زحام المطار، ولم يعد أحد يشاهد الآخر، وحين وصلت لولوة إلى طوابير الجوازات المكتظة بالبشر وقلبها يعزف كل أغنيات الفرحة والانتصار التي سمعتها في حياتها، فتحت حقيبتها بسرعة، تناولت ورقة خالد، هذه الورقة التي تشبه المولود المعجزة بسعادة بالغة..

تجاهلت لولوة كل من هم بجانبها في الطوابير وبدأت تقرأ:

* ليه أحس إنني وأنا أشوفك حزين

قلبي الليلة بهمي ممتلي

كانها الفرقا طلبتك حاجتين

لا تعلمني ولا تكذب عليّ

وذيل كلمات البدر برقم هاتفه.. ثم «خالد»..

ضمت لولوة الورقة بِكَلْتِي يديها بحبّ كبير ثم مدّت يدها وهي تتحرك في طابور الجوازات المزدهم إلى حقيبتها التي تعتمرها على كتفها لتعيد الورقة إليها، وفي اللحظة التي ألقّت فيها الورقة داخل الحقيبة عبر أحد المسافرين من خلفها قاطعاً الطابور من منتصفه ومن دون أن يقصد دفعها بكتفه دفعة بسيطة فاختل تقديرها للموقف وتغيّر مسار الورقة من دون أن تشعر فطارت بين زحمة المسافرين مثل أوراق الخريف لتسقط بكل ما فيها من دماء وأحلام ومشاعر..

ولأن لولوة تعيش حالة من اللاوعي، لم تلاحظ دفعة المسافر الذي خلفها لها، ولم تدر أن ورقة العمر التي ولدت من رحم المعجزات قد أصبحت تحت مسرح الأقدام، وفي ذاكرة

النسيان!

* شعر بدر بن عبد المحسن.

الفصل الثاني

- 1 -

كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف بتوقيت فرنسا حينما خرج خالد من بوابة صالات مطار «شارل ديغول» الدولي، وحينما اتجه إلى جهة مواقف سيارات الأجرة سرت قشعريرة لذيذة في جسده من أثر أنفاس الصباح المحملة بنسمات الخريف الباردة.

كان في حالة غياب تام، لم يدرك أنه مر بكاونتر الجوازات، ولا في صالة العفش، ولا الجمارك، ولا يدري هل تم ختم جوازه أم لا، ولكن ما يعلمه الآن - وهو متأكد منه - أنه فوق تراب باريس، باريس التي ظن أن العشق بها يبدأ على الأرض، كما قالت له الروايات وقصص الحالمين، ولكن يبدو أنهم لم يخبروه يوماً أن العشق قد يولد في الطريق إليها، هناك حيث يسكن القمر وتسبح النجوم!

توقف خالد عند أقرب حائط، تناول علبة السجائر من جيبه وبدأ ينفث دخان سيجارته التي اشتاق إليها في الهواء، مكونة دوائر راقصة تتمايل برشاقة وكأنها تستمع للمعزوفة الفرنسية الرومانسية الرائعة «bilitis» للملحن الفرنسي «Francis Lai»..

حالة حب غريبة اجتاحت مشاعر خالد، وتنامت حتى الوهج حينما عانق هواء باريس وشاهد غيوم الصباح وهي تنفض ما تبقى من مطرها الذي رطب أمسيات السهارى.

استقل خالد سيارة الأجرة باتجاه شارع واشنطن، كان السائق من شرقي آسيا، رجل هادئ لا يتحدث إلا حين يسأل، وإن سُئل لا يطيل في الحديث، سأله خالد عن المطر، وأجابه بأن

المطر زائر باريسى لا يمكن أن يغيب، في كل الفصول يحضر، خصوصاً في مقلب الأيام والشهور.

ابتسم خالد لهذا الخبر المفرح، وعاد بتفكيره إلى الطائرة، وإلى وجه لولوة الذي بدأ يتشكل على جباه الطرقات ووجوه المباني، تذكر كل كلمة قالتها، وكل ضحكة ضحكها، وأحس بمغص شديد حين تذكر أنه كاد أن يضيعها ببروده وترده، ولكنه سرعان ما استعاد قوته حينما تذكر أنه فعل..!

تجاوز السائق كل الطرق السريعة برشاقة، وبدأ يقترب من الشوارع الداخلية لباريس باتجاه المنطقة الثامنة، حيث بلدية باريس قد قسمت المدينة إلى عدة مناطق.. وفجأة لاح قوس النصر أمام عيني خالد، فقال في نفسه وهو يبتسم: «الشانزليزه»..

يا لها من لحظة رائعة، فما هو ذا يجتاز قوس النصر ويسير في الشانزليزه في لحظة تعد بالنسبة إليه كالحلم، ومن شدة فرحه وحماسه كاد أن يخرج كاميرته مثل «مستر بن» في فيلمه الساخر «Mr. Bean's Holiday» عن باريس ويبدأ بالتصوير، ولكنه تمالك نفسه وكبح جماح حماسه..

احترام كبير أظهره خالد لهذا الشارع العريق، وعلى الفور تناول كتيبه الباريسي ليقرأ هذه المعلومة بعجالة:

«أنشئ شارع الشانزليزه عام 1616م على يد الملكة ماري دي مديسيس الإيطالية الأصل، حيث أمرت بشق طريق واسع ومحفوف بالأشجار بهدف تأمين التنزه للناس وهم في عربات الخيل».

فقال ساخراً: الله عليك يا ماري، أجل من 1616م وأنتم بها العقل وبها التفكير ويهمكم ترفيه الناس، حنا ب2013م وتونا نرصف شارع التحلية بالرياض، لا وبعد ما نقدر نمشي مترين من كثر نقاط التفتيش!

انحرف السائق بسيارته إلى جهة اليسار بعد أن تجاوز مسافة من جادة الشانز باتجاه شارع «واشنطن» الضيق ذي المسار الواحد.. ثم انحرف إلى اليسار أيضاً باتجاه شارع فرعي صغير يدعى بالفرنسية «Rue chateaubriand» ليتوقف عند أوله، فالتفت إلى خالد قائلاً: هذا هو فندق، «Mayflower»..

لم يكن الفندق الذي حجز فيه خالد من الفنادق الفارهة، فهو فندق ذو ثلاث نجوم، ضيق ومحدود المساحة، حاله كحال كل الفنادق الباريسية الكثيرة، التي تنتشر في الشوارع الفرعية للشانز، ولكن ما يميّزه أن سعره في متناول اليد لمن يزور باريس وليس غيرها.. ولقربه من الشانز ما يجعل من يسكنه يتحرك بحرية، العجيب أن لدى الفندق غرفاً بأسعار مخفضة بسبب عدم وجود التكييف!

دخل بوابة الفندق ولم يستغرق وقتاً طويلاً للدخول إلى غرفته، وحينما وصل إليها شعر باختناق كبير من ضيق مساحتها، وقال: هذي مو غرفة، هذي عيّنة غرفة، يا الله، والله أني بقيمتها أسكن ببرج خليفة بدبي!

رمى خالد كل ما يحمل وما يلبس وارتقى فوق السرير، الساعة الآن تجاوزت التاسعة وهو منذ صباح الأمس لم ينم لحظة واحدة ومع ذلك لا يشعر أبداً بالرغبة في النوم..

صوت لولوة الذي سكن في ذاكرة سمعه يشاغله عن النوم، وضع هاتفه الجوال بجانبه وهو يتأمل بهشوق لسماع رنينه الذي سيحمل معه صوتاً لا يشبهه صوت..

سرح مع أحلامه المستيقظة وهو يخطط أيامه المعدودة في باريس بصحبة لولوة، وأين سيقضيها معها، وتحمس لوصول صديقه عبدالله، الخبير في خفايا باريس ليده على الأماكن التي تنتظر العشاق من أمثاله..

أنهكته الأحلام الوردية وداهمه التعب فغرق في نوم عميق..

- 2 -

في منتصف الطريق من المطار إلى الفندق بدت لولوة في غاية السعادة وهي تستقل سيارة المرسيدس السوداء برفقة شقيقتها مشاعل التي استقبلتها في المطار..

مشاعل هي الأخت الوحيدة للولوة، وتكبرها بسنتين تقريباً، وكانت قد أنهت دراسة البكالوريوس في «البنس» من جامعة الملك سعود في الرياض، وبعد أن تخرجت قررت استكمال الدراسات العليا في جامعة «HEC paris» العريقة في التخصص نفسه، وهي تقريباً في سنتها الأولى الآن في الدراسة.

تختلف مشاعل جذرياً عن شقيقتها لولوة، فهي مرحة بشكل كبير، بمعنى أنها تهوى الضحك حتى في وسط الكلام الجاد، لديها قدرة عجيبة على إطلاق التعليقات الساخرة، تكره المشاكل، وتقضي أوقاتها في متابعة الأفلام، وتعشق الأغنيات، لكنها مع كل ذلك شخصية قوية من المستحيل أن تتعرض للخداع، ولا يمكن أن يضيع حقها أبداً، ولهذا السبب وافق والدها على أن تكمل دراستها بمفردها في هذه الجامعة..

طغت ضحكات اللقاء بين مشاعل ولولوة على كل نقاشاتهما الفرحة..

فقال مشاعل: ماني مصدقه إنك هنا يا لولوة، أمي وأبوي يعدون لك الأيام عشان يشوفونك، وما عاد عندهم حكي إلا الدكتوراة متى بتجي، الدكتوراة تأخرت، من قدك يا دكتوراة؟!

تقولها مشاعل وهي تضحك..

لولوة بشوق: والله أنا اللي بموت عشان أشوفهم وأشوفك، وبعدين أبي أنام لين يمل النوم مني..

ترد مشاعل: وش نومه وش خرايبطه، أنا تركت السكن وأخذت غرفة عندك بنفس الفندق يعني إنسي شي اسمه نوم، إنت في باريس يا عيوني، أي نوم هذا؟!

لولوة: يا زينك يا مشاعل، هذا إنت ما تغيّرتي نفس الهبل اللي فيك..

مشاعل بعنف: هبل، ما شفتي شي، أوريك الهبل اللي على أصوله يا دكتورة!

ثم تغيّر مشاعل مجرى الحديث وتساءلها سؤالاً مفاجئاً:

إلا ما قلت لي، كيف كانت الرحلة على الخطوط الفرنسية الفله اللي والله لو ما فيه غيرهم خطوط ما سافرت معهم..

سؤال مشاعل عن الرحلة أيقظ جمرة ناضجة غطاها رماد الاستقبال الحار، وغدا السؤال كالرياح التي أشعلتها، فغابت عن الواقع، وطارت مع عواطفها المبللة وهي تبتسم من دون أن تشعر بأنها تأخرت في الرد على أختها..

فأيقظتها مشاعل بصوت عالٍ: هيه وين رحتي يا لولوة، شكك نمتي قبل نوصل الفندق!

تنبهت لولوة لحالها وردت وهي تضحك:

والله يا ميشو أنا كنت خايفة من الخطوط الفرنسية.. ومن كثر ما سمعت عنها، وعن سوء خدماتها، كنت شايله همها بس تصدقين أن ها الرحلة كانت أجمل رحلة بحياتي..

مشاعل باستهجان: أما أجمل رحلة بحياتك فكثري لي منها!... وش الزود فيها يعني؟!

كانت لولوة تريد أن تحكي لها عن خالد، هذا الفارس الذي هبط بحصانه الأبيض فجأة من السماء وخطفها من كآبة الخطوط الفرنسية وطائرهم العجوز، ليحلّق بها إلى عالم لم تشاهده في حياتها..

ولكنها تدرك أن حديثاً كهذا ليس أوانه الآن، وأنها ستختار بنفسها أفضل وقت لتعلن لها أن قلبها لم يعد ملكها..

لذا تجاهلت لولو حماس أختها في الحديث عن الخطوط الفرنسية وقالت باستفهام: إلا ما كنا طولنا بالطريق، مشتاقة لأبوي وأمي..

مشاعل: إلا مشتاقة للنوم يا مفهية، لكن خلاص باقي شارع ونوصل الفندق..

كانت لولو متشوقة جداً لأن تصل إلى غرفتها بأسرع وقت ممكن؛ لتخرج الورقة التي كتبت عمرها، وحركت مشاعرها المتماسكة..

سلكت السيارة شارع الشانزليزيه ثم بعد أن تجاوزت قوس النصر انحرفت إلى اليمين عبر شارع «جورج سانك» أو جورج الخامس، ولم تتوغل كثيراً حتى اتجهت إلى الجانب الأيمن لتقف أمام فندق الفور سيزون «Four Seasons»..

قفز السائق من السيارة بعد أن أوقفها وأسرع في فتح أبواب السيارة، تولى من كان ينتظرهم بالباب أمور الحقائب، وانطلقتا إلى حيث أبويهما ينتظران لولو في الجناح الخاص بهما في الفندق..

دخلت لولو بحماس كبير واحتضنت والدها ثم والدتها، ودار بينهما حديث عائلي دافئ، وكان الأب في كل جملة يقول يا دكتورة، يا دكتورة، ما أثار حفيظة مشاعل فقالت باحتجاج:

ترى اسمها لولو.. ومليون بنت صارت دكتورة، قبلها يعني ما في داعي يا دكتورة بين كل حرف وحرف!

ملاً المكان صوت ضحكات الجميع على اعتراضات مشاعل الظريفة، وبعد مضي نصف ساعة من اللقاء العائلي استأذنت لولو والديها لأجل النوم، وطلبت منهما استعمال

الصلاحيات كافة وحق الفيتو في منع مشاعل من اللحاق بها إلى غرفتها..

ردت مشاعل بغضب: هين يا لولو، ترى أنا اللي عايشة في باريس يعني اللي يبي يتمشى وإلا يشوف الأماكن الحلوة يدور أحد ثاني..

ضحكت لولو من قلبها وخرجت مسرعة إلى غرفتها..

لم يكن هناك من شيء تفعله أهم من احتضان ورقة خالد، التي اشتاقت إليها أكثر من شوقها لوالديها، كانت تسابق الخطى لتنتشلها من حقيبتها، وبمجرد أن دخلت الغرفة جلست على السرير ثم فتحت الحقيبة وبدأت تبحث عن الورقة وهي متيقنة أنها أقرب إلى يدها، بحثت ثم بحثت.. ولكنها لم تجد الورقة، بدأ القلق يسيطر على تصرفاتها، فأخذت الحقيبة وأفرغت كل محتوياتها فوق السرير، وبدأت بتقليب كل ما فيها من دون أن تعثر عليها!

عادت إلى البحث من جديد، من دون يأس، في الوقت الذي بدأت تنهار فيه تماماً، وحين خابت محاولاتها في العثور على الورقة انهارت في نوبة بكاء بعد أن رمت بجسدها فوق السرير..

شعرت لولو بأنها تختنق، ودارت في فلك تفكيرها عشرات الأسئلة التي لم تجد لها أجوبة..

أين اختفت الورقة..؟! كيف ضاعت..؟! هل يعني أن خالداً كان حلاماً والورقة مجرد حلم؟!!

لكنها تتذكر أنها لم تنم في الطائرة، وكل ما حصل، كان واقعاً، وليس من فصيلة الخيال..!

تمددت على سريرها وقد داهمها حزن يكفي العالم بأسره، أحست بشعور مؤلم وكأن أحداً قد انتزع قلبها من بين أضلعها، كادت أن تتصل بأختها ليس لتشكو لها بل لتنهار في أحضانها وتبكي، ولكنها غيرت رأيها وظلت وحدها تصارع لظى نار اشتعلت في كل أجزاء جسدها..

استرجعت كل حديث الطائرة عليها تجد ما يدل على خالد، لكنها لم تجد أي معلومة، فحتى اسم البنك الذي يعمل به لم يذكره، ولا أين سيسكن في باريس، ولا اسم العائلة، لا شيء يدل عليه..

سيطر الحزن عليها وهي لا تعلم أن خالداً يسكن في الشارع المقابل للشارع الذي تسكن على ضفافه، وفندقه لا يبعد عن فندقها إلا خمسمائة متر، أو تزيد بقليل..

مرت ساعات وهي سابحة في عالمها الكئيب، حتى سيطر التعب عليها وداهمها النوم عنوة بحلول الواحدة ظهراً.. فنامت نوماً يشبه الصحو.

- 3 -

عند الثالثة عصراً بتوقيت باريس رنّ جرس المنبه من جوال خالد، فقام مرعوباً من الصوت، فالنوم الذي مر به لم يكن نوماً حقيقياً، فبفضل التعب من جهة، وانتظار اتصال لولوة من جهة أخرى، كان يشعر بأن كل ما به من جوارح مستيقظ، فالنائم الوحيد كانت هي أجفانه المتورمة..

صوت المنبه ذكره بالدوام، وحينما تذكر أنه في باريس ابتسم وكأنه يغيظ إدارة البنك وزملاء العمل، الذين يعانون الآن من حرّ الرياض وهو في مدينة المطر!

تذكر خالد لولوة، وخطف هاتفه من جديد متفقداً الرسائل والمكالمات، آملاً أن يعثر على ما ينبئ أنها تبحث عنه، ولكنه في النهاية لم يجد سوى رسائل من صديقه عبدالله يطمئن على وصوله!

لاحت خيبة أمل في مخيلته، لكنه بعث برسائل اطمئنان لنفسه حين قال إن الوقت لا يزال مبكراً على اتصالها، فبال تأكيد هي مشغولة بعائلتها وبنومها..

وبعد حديث النفس قفز خالد من سريره مسرعاً يستعد للخروج إلى شوارع الحرية، لم يستغرق استعداده وقتاً طويلاً، وخرج من فندقه وهو يلبس الشورت وقبعة رياضية وقميصاً خفيفاً، وطبعاً لم ينس الكاميرا..

نسمات باردة جداً هبطت على جسده منذ أن عبر الشارع، لكن قلة خبرة خالد في الأجواء الباريسية لم تمكنه من استبيان طبيعة الأجواء خصوصاً في سبتمبر (أيلول)، كانت السماء ملبدة بالغيوم، وريح باردة تهب تنبئ بمطر غزير.

استدرك خالد الحقيقة وعاد إلى الفندق واستبدل ملابسه، كان منظر خالد وهو يخرج من الفندق يعطي حقيقة أن هذا السائح حديث عهد بفنون السياحة الأوروبية، خصوصاً في مثل هذه الأوقات من السنة..

مشى خطوات مسرعة إلى جهة الشانزلييه، ويبدو أن أحجار الطريق المرصوفة بعناية كبيرة أسكرته منذ اللحظة الأولى، قطع حجرية منحوتة بعناية فائقة، رصف بعضها بجانب بعض، بدلاً من الإسفلت، وغدت بفعل التقادم مثل لوحة رسمتها أنامل فنان عظيم، توقف خالد في منتصف الشارع وبدأ يتحسسها بأصابعه وهو يتنهد من فرط الإعجاب وقال: من رصف هذه الأحجار ليس سوى شاعر، الشعر في باريس ليس بالكلمات فقط! نسي خالد نفسه حتى كاد أن يدهس تحت عجلات سيارة تقودها امرأة مسنة!

واصل سيره بحماس كبير تجاه جادة الشانز، وفجأة انسابت إلى أنفاسه روائح متناقضة ممزوجة، بين رائحة المعسل، ورائحة الشاورما، ما جعله يتلفت في كل الاتجاهات ليتأكد أنه في باريس، وحده الغيم الكثيف والنسمات الباردة ما أقنعه أنه فعلاً في باريس وليس في شوارع الرياض!

على يمينه - وهو باتجاه الشارع الأشهر في العالم - هناك دكان صغير يقدم الشاورما والأكلات العربية، ويديره عدد من اللبنانيين، ويدعى «le baron»، وعلى اليسار مطعم

ومقهى إيراني يدعي السلطان، يقدم الأكلات الإيرانية والشيشة، ولهذا هو مزدهم بكل الجنسيات، وخصوصاً الجنسيات العربية من مدمني الشيشة!

توجه خالد إلى المطعم اللبناني ليتناول إفطاره، وبمجرد وصوله تعجب من قذارة المكان وكثرة الزبائن، ولكنه في النهاية اشترى ساندويتش فلافل ثم توجه إلى طاولة فارغة داخل الدكان الضيق وجلس ليأكل، وفجأة جاءه شاب لبناني هو أحد العاملين في المطعم وحدثه باللهجة اللبنانية، «يا خيي ممنوع الجلوس، اللي ياخذ صندويشة ما لازم يجلس هون، بدك ما توأخزني وتاكلها ع الواقف!»!

شعر خالد بإهانة كبيرة ولكنه حين تأمل بعد ذلك ما يحدث داخل المحل عذرهم، وأدرك أن هذه سياسة عامة بسبب ضيق المكان وقال، الله يرحم حال مطاعمنا، لو نبي ناكل بمطابخهم ما يقدرن يقولون لنا شي!

هذا الموقف جعل خالداً يدرك أن عليه الحذر، فيبدو أن نظام هذا البلد لا يشبه غيره، خصوصاً في البلدان العربية..

تناول إفطاره بعجالة واتجه إلى الشانز، وفي نفسه خيالات تتقاذف كطفل فرح تريد أن تطير من رأسه لتلامس الواقع، تجاوز الشارع الفرعي ثم توقف مع المتوقفين عند إشارة المشاة، ثم عبر إلى منتصف الشارع وتوقف تاركاً العابرين يواصلون المسير بينما بقي هو في منطقة ضيقة لا يدري أي اتجاه سيرمي فيه قلبه..

على رأس الشارع يقبع قوس النصر، وفي الطرف الآخر يقبع التاريخ ممثلاً بمتحف اللوفر والمنطقة التاريخية بمبانيها، وما بينهما صف طويل من المقاهي والمحلات والحدايق التاريخية، بدأ بالتصوير وكأنها اللحظة الأخيرة التي سيشاهد فيها هذه المعالم، ولكنه تصوير البدايات، فالمسافر حين يبدأ رحلة السفر يكون في قمة الحماس للتصوير في بداية الرحلة، وذلك ربما هي محاولة منه لطبع المشاعر الأولى داخل الصور!

عبر خالد الشارع، وفجأة اصطدمت عيناه بمقهى «الفوكيت Fouquet» التاريخي، وتسمّر في مكانه، ووقف لحظة صمت، كان يتمنى أن تكون لديه القدرة لاصطحاب فرقة الاحتفالات الرسمية لعزف سلام المحبة تقديراً لهذا الصرح الشامخ..

وعلى الفور تذكر خالد تلك الحكاية العجيبة التي حدثت لهذا المقهى العتيق، وموقف الفرنسيين منه، فالمقهى الذي افتتح عام 1899م كان ولا يزال علامة فارقة في تاريخ باريس، فعبر كل هذه السنين كان نقطة تلاقٍ لكل الأدباء والشعراء والمشاهير وحتى رؤساء الدول، ما جعله معلماً سياحياً لا يقل أهمية عن برج أيفل وبقية المواقع التاريخية العريقة، ولهذا تحتفظ إدارة المكان بنجوم في مدخله، تحمل أسماء أشهر الذين توقفوا عنده وتناولوا قهوتهم في رحابه، أما الحكاية العجيبة التي تذكرها خالد فهي أن أحد البنوك الخليجية الشهيرة تقدم بعرض مالي كبير لشراء المبنى الذي يقبع أسفل منه مقهى الفوكيت؛ بغرض تحويله إلى بنك!

ولأن خبراً كهذا لا يمكن أن يمر مرور الكرام، فقد تناولت الصحف خبر المفاوضات وخبر الصفقة، فقامت باريس وفرنسا كلها على قدم واحدة، ونظمت تظاهرة حاشدة تندد بالقرار،

وتشتم ثقافة النفط التي تناولت على ثقافة التاريخ والرموز والمعاني، التي لا تفهمها لغة النفط، وأمام هذا الحشد الأخلاقي تراجعت إدارة البنك، وألغيت فكرة البيع وأعيد تأهيل المكان عام 1999م بإضافة فندق وتطوير المطعم الذي يعلو المقهى لتنتصر الحياة قبل كل شيء!

هذه الحكاية عبرت بكل تفاصيلها أمام ناظري خالد وهو يشاهد مقهى الفوكيت الساكن بين ضفتي جادة جورج الخامس وجادة الشانزلييه..

ثم توجه إلى المقهى وتم إجلاسه على طاولة مطلة على الشارع وطلب قهوة، لم يتأخر النادل كثيراً في إحضارها «وهذه ميزة يختص بها المقهى من دون غيره من مقاهي باريس» حيث جاء النادل بقهوته مرفقاً معها حبات من حلوى الفاكهة، وهي عرف يعلمه كل من يزور هذا المقهى الراقى، حيث يتم تقديم الحلوى الفاخرة كنوع من الضيافة.. وترحباً لطيفاً يجعلهم يتميزون به عن غيرهم..

بدأ خالد يرتشف قهوته ولكنه لاحظ أن هناك عدداً كبيراً من العصافير الصغيرة، التي تجوب المكان برفقة الحمام، وتشارك الجالسين قهوتهم، وتنهش من حلواهم في منظر لم يره على الطبيعة منذ أن ولد، عجب كثيراً لتألف هذه العصافير مع البشر، ووصل إلى قناعة أن الطيور تقرأ النوايا، وقال في نفسه: «هذا الشعب حين يشاهد الطيور ينوي إسعادها وإطعامها بينما نحن ننوي قتلها والعبث بها، لهذا هي تشاركهم الحياة، وتفر منا من مسافات بعيدة!»!

بدأ خالد يتأمل وجوه العابرين، والجالسين معه في طاولات المقهى، شعور لذيذ سرى في بدنه وفي مشاعره، حين اكتشف أن ما كان يظنه رومانسية مصطنعة ومختلقة تفنن في كتابتها الكتاب برواياتهم وقصائدهم ليست سوى حقيقة..

وجوه لا يشبه بعضها بعضاً، ولغات لا تفهم، وأحلام مزروعة في الوجوه تحكي للعابرين لغة يفهمها الجميع، استيقظ الشاعر الذي ينام في داخله، ونسي نفسه في أول جلسة عابرة في

أحد المقاهي الباريسية، وبدأ يدندن في نفسه بأغنيات يرى أنها لا بد أن تُغنى في حضرة هذا المكان، وفي غمرة انسجامه، مرت به صبية نافرة مثل فرس متمرده وتخطت زحمة الطاولات وهي مبتسمة لتلحق بصديقها الذي سبقها إلى المقهى، عندها لمعت جمرة الشوق في قلبه، وتذكر تلك اللؤلؤة الجميلة التي سرقت منه كثيراً من أنفاسه، وتناول هاتفه وبدأ يقلبه ويهزه عليها تسقط من أطرافه، ثم شرد من كل ما هو فيه، إلى أسئلة كلها تعني، لماذا لم تتصل؟!..

- 4 -

بحلول السادسة مساء بدأت مشاعل بقرع باب غرفة لولوة بحماس كبير ممزوج بغضب وهي تردد..

افتحي يا كسولة، أنت في باريس وللحين نائمة، افتحي الباب؟!!

في داخل الغرفة ليس هناك من معالم للحياة، نور خافت، وجو بارد يوحي بأنك في القطب الجنوبي، ورائحة الحزن تتطاير في كل مكان كعاصفة شتائية، وفي منتصف السرير تضع لولوة رأسها فوق مخدتها وهي بملابس السفر، وفي عينيها كثير من السهر والتعب، وكثير من الألم، فمنذ اكتشافها ضياع الورقة وهي لا تدري ماذا أصابها، ولا تدري بعد مرور كل الساعات الماضية أهي نامت فعلاً أم لم تنم؟!.. فقد عاشت حالة إحباط بحجم الأرض، وبسببها فرت من عينيها كل ومضات السعادة والشوق لأهلها ولباريس!

تزايد طرق مشاعل على الباب وهي تقول: «افتحي وإلا والله لأتصل بإدارة الفندق وأقول لهم إلحقونا فيه شخص ميت بالغرفة، وأجيب كل اللي بالفندق فوق راسك»..!

ترددت لولوة في فتح الباب حتى لا تراها مشاعل بهذه الحالة، ولكنها لو لم تفعل ستشير فضول أختها، وقد تشرك والديها بالأمر من دون قصد، ثم ينكشف أمرها، لهذا قررت أن تفتح الباب!

عبرت مشاعل الباب وهي تصرخ بأسلوبها اللذيذ والمتذمر دائماً، ولكنها في عز صخبها صمتت مثل نار دفقت بماء!

وجه لولو المغموس بالحزن، وشعرها المنكوش، وعيناها الغائرتان، وملابس السفر، وكآبة الغرفة، أشياء هبطت على ضحكات مشاعل مثل سيف حاد قطع كل فرحة كانت تحملها في قلبها وفي يديه!!

أغلقت الباب بعنف وقبضت على كتفي لولو بيديها وهي تردد، وش فيك، وش فيك؟!..

انهارت لولوة بين ذراعي أختها وهي تنتحب بشكل لم تعهده بحياتها، حتى في عز زعلها، وعلى كثرة المواقف المحزنة التي مرت بهما، لم تكن تتوقع مشاعل أن يأتي يوم وتنهار فيه لولوة مثلما انهارت في هذه اللحظة، خصوصاً أن مشاعل كانت دائماً تشاغب أختها وتقول لها: أنت جامدة ما يآثر فيك شي أبداً!

ضمت مشاعل أختها من دون أن تعلم لماذا هي تبكي، وسالت دموعها بغزارة تعاطفاً وصدمة مع حالة أختها، وشاركتها البكاء وهي لا تملك إلا تكرار السؤال، وش فيك يا لولو، علميني وش السالفة؟!

- 5 -

على بعد 200 متر تقريباً من الفندق الذي تبكي فيه الآن لولوة، كان خالد قد أفاق من ذكريات المساء ودفع للنادل قيمة القهوة وخرج يجوب الشانزلزيه، وعند كل مقهى يصادفه

يغالبه شعور داخلي بالتوقف، ولكنه يهزمه ثم يواصل المسير، صَوَّر كل الدكاكين والمقاهي وأحجار الطريق والأرصفة، حتى وجوه العابرين صَوَّرها، حتى تجاوز منطقة المباني باتجاه الحدائق، ومن ثم إلى ساحة الكونكورد الشهيرة التي تحتضن المسلة المصرية الفرعونية متجهاً إلى متحف اللوفر..

أول مرة يكتشف خالد أنه غير رياضي، وأن رياضته التي كان يمارسها لعب عيال كما كان يقول لنفسه، فقد تعب من المشي وهو في منتصف الطريق وفي أول ساعات الرحلة، ولكنه حينما كان يشاهد الناس وخصوصاً المسنين والأطفال يشعر بخجل من نفسه، ويواصل السير متقمصاً دور شخصية السائح الأوروبي الذي لا يستخدم السيارات في السفر؛ لأنه يرى المشي هو السياحة الحقيقية؛ لكونه رياضة من جهة، ولكونه يساعد على اكتشاف الأماكن بشكل دقيق ومبهر من جهة أخرى..

عبر حدائق اللوفر باتجاه المتحف برشاقة شاب متحمس، وحين وصل وجد شبك التذاكر قد أقفل، ظن في البداية أنه قد أخطأ برغم تأكده من أن هذا هو شبك التذاكر من خلال أسئلته المارة في حديقة اللوفر.. ولكن ليتأكد توجه إلى أحد الحراس وسأله من أين يشتري التذاكر، فأخبره عن المكان نفسه، ولكنه أردف قائلاً، إن المتحف قد أغلق أبوابه، وأن من يرغب زيارته عليه أن يعود في الصباح!!

لم يحبط كثيراً وعد أن هذا اليوم هو الأول له في باريس ومن غير المنطق أن يقوم بزيارة كل الأماكن في لحظة واحدة، وقبل أن يخرج من بين حدائق اللوفر لمح من بعيد الهرم الزجاجي القابع في ساحة المتحف، وتذكر رواية «شيفرة دافنشي the davinci code» وقال في نفسه: هل يعقل أن ما ذكره الكاتب دان براون عن الهيكل يكون حقيقة؟! هل يعقل أن رفات أو هيكل مريم المجدلية ينام تحت هذا الهرم؟!

خرج خالد وهو يسائل نفسه ويقول: كم من العظماء مروا من هنا، وكم من الحكايات التي كُتبت في كل شبر من هذه الحدائق، وهذا المتحف، وهذه الأرصفة، وأوغل في الخيال حتى بدت له عربات الخيول وهي تحمل العابرين بين الطرقات، وتحمس كثيراً وشاهد

الجيش الألماني وهو يقف مثلما تقف هذه التماثيل التي يمر بها مزهواً باحتلال باريس بقيادة هتلر، وارتعب من خيالاته التي بدت تجره إلى أحاديث لا تعنيه إلا من باب التاريخ..

واصل المسير حتى لمح على طرف بعيد رأس برج إيفل العظيم وقرر أن يذهب إليه ماشياً مثل كل السائحين، ظناً منه أنه قريب، وذلك كمن يرى الغيمة العابرة ويشعر بقربها، وتحمل تبعات قراره ثم انطلق يجوب الشوارع بلهفة الذهاب إلى موعد غرامي!

- 6 -

على ضفاف شارع «جورج سانك»، ومن قلب فندق «الفورسيزون»، سرت ضحكة مجلجلة زلزلت أركان الفندق، صدرت من داخل غرفة لولوة كان مصدرها بالتأكيد مشاعل، الأخت المتمردة على كل شيء حتى لحظات الدراما والحزن، وأخذت تجوب الغرفة وهي تقول: «ياهووووه لولوة الجامدة طلعت تحب!»! نهرتها لولوة التي أحست براحة كبيرة بعد أن بكت، وبعد أن شرحت لأختها قصتها وسبب حزنها ونادت أختها بتوسل لتسكت ولتبحث لها عن حل، بدلاً من هذا «الهبل» الذي لن يحقق لها ما تريد!

جلست مشاعل على طرف السرير بجانب أختها وهي مبتسمة ثم قالت:

تصدقي يا لولو والله كنت أتوقع كوريا الشمالية تحب كوريا الجنوبية، وأنت لا يمكن إنك تحبين!

يا لولو أنا اللي مستغربة منه كيف موقف عابر وبطيارة ومع شخص ما تدرين منين هو يسوي بك كل كذا؟!!

يا أختي أذكرك، كم مرة تعاكستي، وكم مرة سولفنا عن الشباب اللي نشوف وأنت ولا واحد جبتي له خبر، ليش وش صار بالدنيا حتى تسوين بنفسك كل هذا؟!!

صدقيني ضياع الرقم خيرة لك، أنسي السالفة وقومي تروشي وغيّري ملابسك وخلينا نكمل البرنامج ونروح نتعشى، فيه مطعم يجنن عازمتك فيه؟!

نظرت لولو إلى شقيقتها بخيبة كبيرة، وبصوت ثابت ورزين قالت: اسمعي يا مشاعل، أنت أقرب إنسان لي بالحياة، واللي صار أنا أدركه زين، ورجاءً اتركي الهبل وانسي المزح لو مرة، أنا لا يمكن إنني أضيع الفرصة اللي خلتني أحب فيها شخص باختياري، أنت أكثر إنسانة تعرفني وشلون أنا صارمة بها الأمور، لكن هذا الموقف غير حياتي، ليش وكيف أنا نفسي ما أدري، بس اللي أعرفه زين ها الحين إنك أمام خيارين يا تساعديني كيف ألقى خالد يا تتركيني بحالي أدور لي طريقة؟!

بعد هذا النقاش أحست مشاعل أنها أمام إنسانة جديدة، لم تعرفها طوال حياتها، كلمات صارمة خرجت من أختها جعلتها تدرك أنها أصبحت عاشقة، وقررت أن تساعدها بكل ما تستطيع، ولكن أين ستعثر لها على خالدها في زحمة البشر، وكيف ستتخلص من والديها لتجوب الشوارع في رحلة البحث، وكيف ستذهب إلى الشانزلزيه برغم تعليمات والدها الصارمة بعدم الذهاب إليه مهما كانت الظروف، حتى غدت حدود مشاهدتها للشارع لا تتعدى سوى لحظات العبور بالسيارة، وبالتالي ستفقد أهم موقع قد تعثر به على خالد، وهو مقاهي الشانز التي تعد المقر الرسمي لتجمع السعوديين فيه من دون غيره!

حيرة كبيرة مرت بمشاعل، ولكنها أمام نظرات أختها العاشقة قررت المغامرة بكل ما تستطيع، وقالت بصوت واثق وبلغة مازحة وهي تغني: نجيبه يعني نجيبه لو كان تحت الحراسة!

فوق عشب أخضر يمتد لمسافات طويلة بالقرب من برج إيفل رمى خالد بجسده المنهك بعد أن استغرق أكثر من ساعة كاملة في رحلة الوصول إلى البرج، لدرجة كاد أن يفقد فيها الوعي من الإنهاك، ولكن عناد السائح الجديد جعله يرفض فكرة الاستعانة بأي سيارة، أو أي وسيلة نقل، حتى وصل بعد جهد كبير، ما جعله يسقط فوق المرح وهو في حالة يرثى لها وهو يخاطب نفسه:

قال السياحة الحقيقية هي المشي، لا بو من علمكم السياحة؟!!

وبعد أن التقط أنفاسه، وضع كفيه تحت رأسه وبدأ يتأمل البرج، هذا المعلم الجبار الذي أجبر العالم على زيارته، صعق من طابور البشر الذين ينتظرون أدوارهم للصعود عليه، وزفر زفرة من أعماقه وقال: هذا الطابور اللي ما فيه أمل تعرف أحد من اللي عند المصعد عشان يعديك من تحت لتحت!

ومرة أخرى تستوقفه مواعيد العشاق، هذا يمسك بيد صديقه، وهذه تنام على حجر صديقها، وآخرون يعيشون خارج الحقيقة ويقبلون بعضهم بعضاً.. عابرين وجالسين!

المشاعر الدافئة التي تزاخمه في كل الأماكن التي يمر بها تشعل في قلبه جمر الشوق إلى ملاكه وتنسيه لذة السياحة..

فخالد يلهو كثيراً حتى مع نفسه، ولا يترك أثراً لأي أمر يشغله، ولكنه لاحظ أن فترات انتظار لولو قد أنهكت تفكيره، وبدأ بالنسبة إليه مثل حلم جميل يوشك أن يصبح حلاً لا أكثر.. ولكنه حينما يفكر بهذه الطريقة يجد ما يقنع به نفسه بأن الوقت لا يزال مبكراً على هذا التفكير..

اقتربت الساعة من منتصف الليل في باريس، وبدأ الإعياء يأخذ من جسد خالد بعد أن صعد البرج مشياً في سبيل تلافي الوقوف في طابور الانتظار الطويل، ما جعله يكتفي

بمنتصفه، حيث تمكن على الأقل من تصوير باريس من مكان عالٍ، وها هو ذا الآن يتوقف عند محطة سيارات الأجرة ليستقل سيارة تأخذه إلى سريره بعد يوم حافل ومرهق..

عبر به سائق الأجرة التونسي الأصل شوارع ناعسة بنور خافت، برشاقة سائق ماهر، واستغل عروبية هذا السائق ليسأله عن باريس وعن معالمها في الوقت الذي يقوم هو بتوجيه نظره في كل اتجاه خوفاً من أن يفقد مشهداً قد يندم عليه، كانت الطرقات تعج بالسهارى، خصوصاً حينما أقبل على شارع المواعيد الجميلة، شارع الشانزلزيه، فالأضواء التي تشع من كل زوايا الشارع توحى بأنه يستعد للعيد، وحركة المارة، وزحمة المقاهي تعكس معنى الحياة الرائعة التي لا يدركها سكان الصحراء الجافة، ظل يتأمل كل ما يمر به حتى توقفت به السيارة بجانب فندقه الصغير..

كان خالد ينوي إفراغ محتويات الكاميرا في جهاز الكمبيوتر المحمول حتى يُعدها لمرحلة جديدة من التصوير، ولكنه ومنذ لحظة دخوله في غرفته قام بتشغيل الكمبيوتر واتجه إلى ملف الأغنيات، كان يشعر برغبة كبيرة لأن يسمع صوت فيروز، كان هناك شجن يتجول بمساحات قلبه ولم يجد أجمل من جارة القمر لتوشوشه في مساء باريس مملوء بالنسمات الباردة، والحب والشوق والحياة..

لحظات بسيطة حتى اشتعل صوت فيروز وكأنه برق لمع وسط تلك الغيوم المثقلة بالمطر، التي تجوب سماء باريس منذ وقت طويل.. ومن دون اختيار محدد لأغنية، صدحت الفيروزة بعذوبة لا تشبه غيرها مرردة..

* ليلية بترجع يا ليل

وبتسأل ع الناس

وبتسقيهم يا ها الليل

كل واحد من كاس

غيب لك شي ليل.. يا ليل

وإنسانا يا ليل.. يا ليل

وبقيت فيروز تقفز من أغنية إلى أغنية، مثل نحلة تنسج العسل من كل الورود، بينما عاد خالد إلى الطائرة، استرجع كل لحظة مرت به، منذ أن شاهد لولو حتى آخر لحظة افترق عنها، نسي في هذه اللحظة كل ما يشعر به تجاه باريس، وغدت ضحكاتهما وعيونها بالنسبة إليه هي مطر باريس، وعطرها، وتاريخها، وبدأ هذا الشعور يتنامى في داخله بشكل لا يصدق هو قبل غيره، وظل يفكر بكل ما يؤدي إلى لؤلؤته وهو يحمل في يديه هاتفه الذي نسي الكلام، ونسي لغة الوصال حتى داهمه النوم من دون أن يدري!

* من أغنية فيروز «ليلية بترجع» للأخوين الرحباني.

- 8 -

في قلب الفندق العتيق فورسيزون، وعلى ضفاف الشارع التاريخي جورج سانك، كانت لولو تجلس فوق أحد الكراسي شاردة الذهن، وهي تجلس بين والديها وشقيقتها بجناحهما، بعد أن عادوا جميعاً من سهرة صغيرة تناولوا فيها العشاء في مطعم «annapurna» الهندي الذي يقع في الشارع الموازي للشارع الذي يسكن فيه خالد..

كان المطعم فخماً ويكتظ بالسعوديين المخمليين، والجو العام للمكان يجلب السعادة إضافة لأكلاته الشهية الفاخرة، ولكن كل هذا الإغراء لم يكن ليُجعل فؤاد لولو يبتسم رغم ابتسامة شفاهها، ما جعل والدتها تلحظ أن ابنتها ليست على ما يرام، وهذا ما جعلها تلتفت إلى زوجها وتقول:

شكل لولو للحين وهي تعبانة من السفر!

وحتى لا يأخذ الحديث حول هذا الأمر مجالاً كبيراً وبعيداً، ردت مشاعل بسرعة فائقة وبخفة دمها:

ماما، ها الحين صار لي مليون سنة معكم، وكل يوم أكح، وأزكم، وأصدع ما قد سألتيني وإلا انتبهتي لي وقلتي وش فيها مشاعل كنها تعبانة؟! شوفي يا ماما أنت وبابا، ترى حنا في بلد يقدرن حقوق الإنسان، وإذا ما تركتوا ها الحركات أبي أشتكي عليكم وأقول إنسانيتي مسلوبة من أهلي وذاك الحين دبروا أعماركم!

امتلاً المكان بضحكات الجميع وتعليقات مشاعل الساخرة أنطقت والدها الصارم حتى قال:

الله يقطع إبليسك يا بنتي ضحكينا غصب، خلاص يا الملسونة ما عاد نسأل عن لولو دام السالفة فيها حقوق إنسان، أهم شي نسلم من لسانك!

نظرت لولو لشقيقتها بنظرة رضا وابتسمت ابتسامة امتنان، لكن مشاعل اقتربت منها وهمست لها: الفاتورة تبي تكبر عليك والله لا أذك يا جوليت..

سرحت لولو وهي تجلس في جناح والديها بموقف أختها مشاعل، وابتسمت لخفة دمها وقدرتها العجيبة على تغيير مسار الحديث من دون أن يشعر المتلقي بأي شيء مريب.. وبعد جلسة عائلية قصيرة استأذنت لولو ومشاعل من والديهما وذهبتا إلى غرفة لولو للتباحث حول مصير العاشق المفقود..

بقينا طوال الليل تتباحثان أين ستجدان خالد، كانت مشاعل وبخبرتها في باريس تقول لأختها:

السعوديون عادة يجتمعون في مقاهي ومطاعم الشانز من بعد العصر لآخر الليل، ويجتمعون بمطاعم شهيرة مثل المطعم اللي تعشينا فيه اليوم، وهذي عددها ما هو كثير، ويجتمعون بعد في المطاعم العربية، وبعضهم عند الأماكن السياحية، واللي يتسوقون فيه أكثر من مكان منها السان جيرمان، وجزء كبير منهم يحب يروح للسان ميشيل

«الحي اللاتيني»، وأما العائلات هي وبعض المهتمين بالسياحة يسافرون إلى الريف وإلى المدن البعيدة، وفيه عينة قليلة منهم خاصة اللي معهم بزارين واجد يروحون لديزني لاند، والشباب لهم أماكن سهر وخرابيط بآخر الليل، وعشان ممكن نصادف روميو حقك، أقصد خالد في مكان نبي نرتب خطتنا بحيث أننا نتعشى كل يوم في مطعم من هذي المطاعم، ونبي نروح للحي اللاتيني، ونمر بعض الأسواق، ونروح للمتاحف ولإيفل، ويبقى الشانز، وهذا بالذات يبي لنا «فيتو» عشان نقنع الوالد حتى نروح ليلة بس وهذي عليك إنت؛ لأنني عجزت أقنعه، وطبعاً مستحيل نروح الريف عشان ندوره لأننا كذا مثل اللي يدور دبوس بكوم رمل، ولا حتى ديزني لاند؛ لأنها للبزارين ومستحيل تلقينه هناك، هذا غير أنها لحالها مدينة، والله لو إني مواعدتك فيها مستحيل ألقاك، أما السهرات والخرابيط فإذا خالد من الشباب اللي يروح لها ما عليه حسافة!

حالة من الرضا تلبست لولوة وهي تستمع لمخططات أختها وحرصها على مساعدتها، وأكثر ما أعجبها أنها أول مرة تشعر أن أختها جادة، فقامت على الفور واحتضنتها لتوصل شكرها بطريقة أسرع ثم قالت لأختها:

يا الله ها الحين انقلعي لغرفتك أبي أنام وبكرة نشوف وش نسوي!

دفعت مشاعل أختها بغضب وقالت: مالك خاتمة يا لولو يوم خذيتي كل شي تقولين انقلعي، وأنا مثل الهبلة قاعدة أخطط كني المحقق كونان، طيب يا لولو..

لولو وهي تضحك: أحبك يا أغلى هبلة في حياتي..

الفصل الثالث

- 1 -

استيقظ خالد في صباح اليوم الثاني من رحلته بعد أن نام نوماً عميقاً تحفه الأحلام الوردية من كل جانب، ولم يكن في تفكيره سوى لولو، لهذا تناول هاتفه بسرعة فائقة يتفقدته ولكنه لم يجد فيه ما يبشر بأنها لا تزال تتذكره..

حالة من خيبة الأمل داهمته مع بداية يومه الباريسي، وشعر بأن لهفته لباريس لم تعد كما كانت، ذبلت لديه الرغبة في السياحة، وتاه مع شوق ولد على متن الطائرة، وأحس الآن أن رغبته في السياحة ومعرفة خفايا بلد النور والعطور قد تلاشت تماماً، أصبح هاجس لولو هو الأهم لديه من كل ما حوله، وتمنى لو أن صديقه عبدالله يهبط عليه هذه الأثناء من سقف الغرفة؛ لأنه صار بحاجة كبيرة إلى أن يتحدث مع أحد يهتم لأجله ليحكي له عن العاصفة العاتية التي هبت على مشاعره بين الغيوم.

أمضى خالد ساعات طوالاً وهو في فراشه، لا يدري ماذا يفعل، وبعد مضي كل هذا الوقت، خرج إلى الشارع واتجه إلى الضفة الأخرى ثم حين مرّ بكشك صغير لبيع الصحف والهدايا، توقف واشترى صحيفة «الشرق الأوسط»، واتجه إلى أقرب مقهى يمر به وكان يسمى «الدوفيل le deauville» وجاءت تسمية المقهى نسبة إلى مدينة ساحلية تسمى بالاسم نفسه، لهذا يلبس العاملون فيه لباس البحر، وحتى مظلتهم الزرقاء تحفل برسومات تشير إلى البحر، ويمتاز المقهى بتوسطه من شارع الشانزلزيه..

لم يكن المقهى مزدحماً بالناس لهذا اختار موقِعاً جيّداً ثم طلب قهوته وبدأ يتفحص المكان، عابرون يتوقفون لتناول القهوة وتبادل الأحاديث.. وسياح أرهقهم الركض جلسوا يراجعون خطة اليوم ويتفقدون الصور التي التقطوها، وتذكر خالد أنه نسي كاميرته في الفندق ليدرك بينه وبين نفسه أنه لم يعد سائِحاً، بل عاشقاً تائهاً مثل بحار أوضاع السواحل..

بالقرب منه يجلس مسنان رجل وزوجته، خطوط الزمن المرتسمة على جسديهما تحكي حكايات لم تدون ولن تدون، طلبا فنجانين من القهوة الداكنة، وبقيتا يتأملان ما حولهما بأعين منهكة فقدت بريقها، ولفت نظره أنهما منذ أن دخل في المقهى لم يشاهدهما يتحدثان بعضهما إلى بعض، وظل يراقبهما طوال زمن جلوسه على أن يشاهد شفاههما تتحرك، ولكن ذلك لم يحدث ليتأكد فعلاً أن الكلام مثل كل شيء يأتي يوم وينتهي! وبين هذين المسنين «خلص الكلام»!

بدأ يقرأ في جريدته ولكنه في كل صفحة كان يجد لؤلؤته بين الكلمات، وبين الصور، وكلما ضج الحنين بداخله، رفع رأسه يتأمل العابرين ثم يتناول سيجارة جديدة يحكي بدخانها أحاديث تتجول في صدره ولم تجد من يخرجها..

وكان كلما مر به الوقت بعيداً عن اتصال لولوة يجزم أنه قد تعرض لعملية نصب كبيرة، كان ثمنها سرقة كل مشاعره من قبل إنسانة لم يكن ما حدث منها سوى عبث غير محسوب تجاه قلبه!

أحس خالد الآن أنه قد تحول إلى شخصية من شخصيات الروايات، بتحوله العجيب من سائح كانت أكبر أحلامه التقاط صور، ومشاهدة أثر، إلى عاشق مسجون بذكريات عابرة، جعلته ينسى كل شيء، ويسكن في المقاهي بين فناجين القهوة، ودخان السجائر، ووجوه الغرباء!

رمى الجريدة على الكرسي الفارغ الذي بجانبه، ثم تنهد بقوة في محاولة منه لإخراج لهب النار الذي يأكل ضلوعه، كان بين الناس بجسده وليس بعقله، لهذا هو لم يلحظ وجود

شخص قريب منه كان يراقبه منذ دخوله إلى المقهى..

فبالقرب منه كان يجلس رجل مسن أنيق المظهر، آثار السنين تبدو واضحة على وجهه الصغير، حيث رسمت في تقاسيمه بعض الخطوط الوردية المجعدة، ولكن ومضة من الوسامة لا تزال تشع بهدوء ورزانة من بين ركام الأيام التي تعتربه، وقد منحته الشعر الأبيض وقاراً ملحوظاً..

التفت فجأة إلى خالد بهدوء الكبار مرحباً ثم قال: هل تتحدث الإنجليزية؟!

خالد بعد أن فزع من اقتحام هذا الرجل خلوته رد عليه التحية ثم أجاب: نعم..

المسن مصافحاً خالد: فرانك من أمريكا..

خالد يعرف بنفسه: خالد من السعودية..

فرانك: أعتذر بشدة عن اقتحام خلوتك ولكنني شاهدتك وحيداً وأنا كذلك، فأملت أن نتشارك الحديث إذا كان لا يزعجك ذلك..!

خالد: بالعكس هذا يسعدني..

فرانك: سأعترف لك أكثر، فأنا منذ أن رأيتك تعبر المكان وأنا أشعر بأنك مهموم، وقد ذكرني همك المرسوم على محياك بما مرّ بي في حياتي، وخمنت من خلال تجربة السنين أن هذا الحزن ليس سوى حزن عاشق، فهل أنا مخطئ؟!

خالد باستغراب: وكيف تستطيع تمييز حزن العشق من بين بقية الأحزان؟!

فرانك: لن أقول لك إنها خبرة السنين أو فراسة أتفرد بها.. لكنها في الحقيقة ملامح واضحة، خصوصاً لمن عاشها.. فالعاشق المهموم لا بد أن يكون في مثل سنك، وتجده شارد الذهن، وتتغير ملامحه بين كل لحظة وأخرى حسب ما يفكر به، والأهم أنك تلمح همه

بوضوح وتجل حين يشاهد أي عاشقين في أي مكان، وهذا ما لاحظته عليك وجعلني أجزم إلى حد بعيد أنك عاشق مهموم!

خالد بعد أن أعجبه الحديث: لقد صدقت في تخمينك وأهنيك على هذا التمييز الجميل..

فرانك وهو يبتسم: بل هنئ كارولين!..

خالد: ومن هي كارولين..؟!

فرانك يتنهّد ثم يقول: كارولين، إنها قصة طويلة جداً يا بني، فهل أنت مستعد لتسمع؟!

خالد بحماس: طبعاً من فضلك!

فرانك: يا سيدي، أنا رجل أمريكي، وكنت في بداية سبعينيات القرن الماضي قد جئت برفقة الجامعة هنا إلى فرنسا، كنا مجموعة كبيرة من الشباب والفتيات، وكانت الجامعة تهدف إلى تطوير بحوثنا ومعلوماتنا تجاه تاريخ أوروبا، ولهذا كان الخيار الذي اتفق عليه هو فرنسا، فكل الطلاب كانوا يحلمون بزيارة باريس على وجه التحديد، وبعد جولة عدة أيام في باريس توجهنا إلى مرسيليا، هذه المدينة الساحلية الفرنسية الساحرة، كنت أختلف من غيري من طلاب الجامعة الشباب، فكل الزملاء كانوا على علاقة بصديقة كانت معنا في الرحلة ذاتها، إلا أنا فقد كنت مثل قصر مهجور، لم التقِ بمن تشعل في قلبي شمعة واحدة، وقد منحني هذا كثيراً من التحرر في فرنسا، حرية العشق الممنوع لأجل السفر وليس لأجل الحب!

وفي يوم مشمس توجهنا جميعنا إلى الشاطئ في مرسيليا، وبعد أن مرحنا كثيراً على الرمال ومارسنا السباحة في مياه البحر النقية، داهمني الجوع وأحسست بالرغبة في تناول الطعام، فذهبت باتجاه المطاعم الكثيرة المنتشرة على حدود الشاطئ، وحينما عبرت الطريق لم أكن حاضر الذهن، فقد كنت أتأمل المطاعم لكي أقرر إلى أي منها سأذهب لهذا لم أنتبه للسيارات العابرة، وفجأة وأنا في منتصف الطريق انتهت إلى وجود سيارة

مسرعة كانت تتجه ناحيتي ولم أتمكن من الفرار، ولم يتمكن قائدها من تلافي الاصطدام بي، فقد كانت المسافة قريبة جداً على مثل هذه القرارات، لهذا فقد حاولت على الأقل القفز فوق السيارة لتخفيف الصدمة، ولكن كانت السيارة أقرب لي من أي تصرف قد أقوم به، فصدمتني وسحبتني أمامها عدة أمتار، ومع هذا الاصطدام فقدت الوعي تماماً!..

وعلى الفور تم نقلي إلى المستشفى وبقيت في غيبوبة لمدة أسبوعين كاملين، وحينما أفتت اكتشفت أن قدمي اليمنى ملفوفة بجبيرة بالكامل ومثبتة بطرف السرير بإحكام وفوق وجهي وبقية أطرافي خدوش وآثار جروح.

كانت غرفة المستشفى هادئة وباردة جداً، ولم أكن أدرك لحظة إفاقتي ماذا يحدث لي الآن، فقد كنت شبه فاقد الذاكرة من قوة ارتطام السيارة بي، وحينما بدأت الرؤية تتضح أمامي بدأت أتفقد المكان الخالي من الناس، ولكني لم أجد أي إنسان ولم أسمع أي صوت سوى أصوات الأجهزة الطبية الملحقة بجسدي، وبينما كنت أتلفت بصعوبة لمحت في آخر زاوية الغرفة فتاة تنام وهي جالسة فوق أريكة تلتصق بالحائط!

حاولت أن أناديها ولكني كنت منهكاً لأبعد الحدود ومخدراً بشكل كافٍ، لكني وبعد جهد استطعت أن أناديها بكلام غير مفهوم، وبمجرد أن خرج صوتي استيقظت الفتاة وقفزت مفزوعة من مكانها وانطلقت نحوي بأقصى سرعة، وهي تبدو غير مصدقة أنني قد عدت إلى الحياة!

وقفت بجانبني ثم أمسكت بيدي اليسرى بكفيها وضغطت عليها بحنان وهي تبكي من دون صوت، كانت دموعها تسيل مثل قطرات المطر وهي تتمتم بكلمات لم أكن أفهمها..

كانت الفتاة تبدو في العشرين من عمرها، ناعمة الملامح وذات شعر قصير مدور، ولا يبدو أنها ممرضة، اتضح ذلك من ملابسها، فقد كانت تلبس فستاناً بنفسجياً ناعماً وقصيراً، ويلتف حول خصرها حزام من قماش الفستان نفسه، ويزدان بحلقة فضية دائرية في

منتصفه، كانت ملامحها أقرب إلى أن تكون من أمريكا اللاتينية، خصوصاً لون بشرتها البرونزي الساحر..

أحسست أنها حين كانت تمسك بيدي، كانت تشكر الرب على عودتي إلى الحياة، بينما أنا كنت في حالة شرود وتعجب، وكنت بحاجة ماسة إلى العثور على القدرة على الكلام لأسألها عن حالي، وكيف وصلت إلى هنا، ثم ومن هي هذه الغريبة التي تبكي لأجلي وتنام برفقتي في هذا المستشفى، ولكني بالنهاية لم أتمكن من قول أي شيء، بينما خرجت هي مسرعة من باب الغرفة واستدعت الأطباء لكي يشاهدوا الميت الذي عاد فجأة إلى الحياة، هذا ما فهمته من فرحتها!

ويوماً عن يوم بدأت أتعافى، وبدأت أستعيد قدرتي على الكلام، بينما لم تكن هذه الفتاة لتفارقني لحظة، وبعد عدة أيام، وحينما أفقت من النوم وجدت الغرفة وقد امتلأت بالورد، ثم وحين شاهدتني قد استيقظت أقبلت ناحيتي مبتسمة ثم وقفت بجانبني، وبعد أن هنأني على السلامة، بدأت تتحدث معي بلغة إنجليزية مقبولة إلى حد ما، وبدأت تشرح لي كل ما حصل!

كانت الفتاة هي التي تقود السيارة التي صدمتني، وحينما حدث ما حدث نذرت نفسها للوقوف بجانبني حتى أفيق، خصوصاً أن زملائي الطلاب ومن معهم من الأساتذة اضطروا للسفر إلى أمريكا بعد انتهاء زيارتهم، وأصبح أمر مرافقتي من قبلهم غير مجدٍ، ولم يتنازل أحدهم للوقوف معي يا للأسف، وعلى طول الأيام التي عشتها بين الحياة والموت كانت الفتاة تلازمني في غرفتي طوال الوقت، وترفض أن تخرج على الإطلاق، حيث مارست معي كل الأدوار الإنسانية والطبية، وأصبح الأطباء يعتمدون عليها في متابعة حالتي، وقد تسبب الحادث بكسر في قدمي اليمنى، ورضوض في بقية الجسم، وبعد شهر تقريباً من وجودي بالمستشفى تم السماح لي بالخروج مع الإبقاء على الجبيرة بقدمي، على أن أعاود زيارة المستشفى حتى أشفى تماماً..

تولت الفتاة – التي عرفت أن اسمها كارولين – إنهاء إجراءات الخروج، ثم اصطحبتني من دون أخذ موافقتي إلى شقتها لتساعدني على الشفاء، وعلى مدى شهر كانت ترعاني وكأنني طفل مدلل..

ولن أخفيك أنني منذ اللحظة التي شاهدتها فيها وهي تبكي فوق جراحاتي، وأنا أشعر بأن مطراً قد بلل عطشي، كنت أشعر بتآلف غريب مع هذا الوجه الملائكي الذي هبط علي من دون موعد..

لم أكن أتخيل أن أعشق في مثل هذه الظروف، ولكنها مشيئة الله، والحب كالموت.. قدر لا تعرف مواعده!

كارولين هي ابنة لعائلة مهاجرة جاءت من المكسيك، وهذا ما ظننته حينما شاهدت ملامحها أول مرة، وكانت في ذلك الحين تدرس بالجامعة في سنتها الأولى، ومع مرور الأيام نشأ بيننا حب يستحق أن يروى، وحدث فيها عمري وحياتي ومستقبلي، بينما هي فقد انتمت لي ولقلبي فغدونا أنا وهي من أجمل العشاق في ذلك الزمان!

نسيت أمريكا وهاجرت إلى حيث هي تكون، وعملت في أحد الفنادق براتب مجزٍ بسبب اللغة الانجليزية، وعشنا قصة مثل تلك القصص التي لا تشاهد إلا في الأفلام، عاشقين نجوب مدن فرنسا وأوروبا كلما سنحت لنا الفرصة، وبالطبع تزوجنا منذ وقت مبكر من علاقتنا، وفي باريس هذه نقشنا كثيراً من الذكريات المجنونة..

ولكن يا بني للقدر وجوه بشعة تطل من دون تردد، وكأن سعادة السعداء تغيظها..! لهذا وبعد ثمانية أعوام من حياتنا المشتركة قررنا أن نقوم بقضاء إجازة قصيرة في مدينة كان الفرنسية، كانت الدنيا مشرقة، كنا نضحك كثيراً، وكانت كارولين حين تضحك بعمق تدمع عيناها، وكنت لحظتها أستطيع أن أشم من دموعها رائحة عطر أزكى حتى من عطور شانيل، وفي ليلة من ليالي المرح تناولنا سوياً طعام العشاء في مطعم فاخر ثم خرجنا نتمشى باتجاه الفندق، وفي منتصف الطريق صادفنا شجاراً عنيفاً بين بعض الشباب

المتشردين، وقررنا أن نهرب من جهتهم إلى الجهة المقابلة، ولم نكد نتحرك حتى سمعنا صوت الرصاص ينطلق من مسدس كان يحمله أحد المتشاجرين، هرونا بسرعة خوفاً من إصابتنا، ولكن مع تبادل إطلاق الرصاص الكثيف، استطاعت إحدى هذه الرصاصات الطائشة الوصول إلى قلب كارولين!

توقف فرانك هنا عن الحديث، وتوقف ريقه في منتصف حلقه، ثم اغرورقت عيناه بدموع معتقة، لمعت مثل لؤلؤة ثمينة، وفي هذه اللحظة كاد خالد الذي اندمج مع حكاية العجوز الأمريكي أن يقوم بحضنه ومشاركته البكاء، ولكنه اكتفى بدموع ملأت عينيه مثل سراب في صحراء!

تجاوز فرانك أحزانه وأكمل: لم تكن الرصاصات الطائشة لتمنحنا فرصة لأن ننقذ كارولين، فقد كانت يا للأسف تسديدة مميتة بكل ما تحمله الكلمة من معنى!

ماتت كارولين فيما شقيت أنا بملاحقة ذكرياتها بقية حياتي إلى يومنا هذا، وبعد أن عصفت بي ذكرياتها قررت أن أعود إلى أمريكا لعلي أنساها، ولعلي أبتعد عن ذكرياتها، ولكني برغم كل مقاومتي ومساعدة من أعرفهم في وطني إلا أنني فشلت ووجدت أنني أسبح ضد التيار، لهذا ومنذ رحيلها نذرت نفسي لذكرياتها، لم أقوَ على مفارقة فرنسا، وفي كل أسبوع تقريباً أقوم بزيارة قبرها، ووضع الورد فوقه، فيما أتسول ذكرياتها في كل مكان قد تشاركنا فيه الحياة يوماً من الأيام!

هل تصدق أنني لم ألمس كف أنثى منذ أن فقدت حبيبتي؟! قد تعتقد بأني مجنون، ولكن ما يعتقدُه عاشق مثلي هو أن الجنون هو العكس، الوفاء يجب أن يكون كاملاً، وألا يتجزأ!

وبعد، هل عرفت كيف استطعت أن أخمن أن حزنك هو حزن عاشق، وليس حزن شيء آخر؟!

تنهد خالد ثم قدم عزاءه لهذا العاشق، ومن ثم هنأه على قلبه الكبير، وهنأه على أنه تمكن أن يعيش حياة مثل ما عاشها مع كارولين..

فرانك: إذاً هل لك أن تخبرني الآن عن حقيقة تخميني؟!

خالد: تخمينك في محله، ولكن حكايتي يا سيدي لا تستحق أن تُحكى، فبعد قصتك العظيمة، باتت قصتي أصغر من أن تُحكى فما أنا إلا عاشق من دون عشق!

فرانك: مهما اختلفت التفاصيل يظل الحنين واحداً، وإذا لم يكن يزعجك حرصي على سماع حكايتك فأرجو أن تحكيها!

بدأ خالد يحكي قصته مع لولو بشوق كبير وكأنه قد وجد بهذا الحديث مخرجاً لكثير من أحزانه، تحدث بلسان عاشق حقيقي، وعرف كيف يقنع من يستمع إليه من خلال تقمصه أسلوب المَسْن نفسه، غير أن قصة خالد لم تكن لتحمل أحداثاً أكثر مما حدث في الطائفة، وكل ما هو بعد ذلك ليس سوى انتظار لا يدري أهو محق فيه أم لا..؟!

أنصت فرانك إنصات العاشقين، وحينما فرغ خالد من سرد حكايته أنهاها بأسئلة غير مباشرة، تعني هل ينتظرها أم ينساها؟ وهل ما مرَّ به يرتقي إلى منزلة العشاق أم لا؟!

ابتسم فرانك ابتسامة التعاطف مع حكاية خالد، ثم قال له بلغة العاشق الخبير: يا بني، الحب الحقيقي لا يطرق باب القلب مرتين، الحب الحقيقي حين يطرق باب القلب هو بالفعل يريد الدخول، ويريد السكن، ولكن حين لا يجد من يفتح له الباب سيذهب إلى النسيان ولا يمكن حين يرحل أن يترك رسالة!

ومن خلال ما ذكرته لي الآن أقول لك إن ما تشعر به هو الحب الحقيقي الذي إن لم تسمح له بالدخول سيغادر من دون عودة، ولكونك متيقناً من مشاعرها ثق تماماً بأنها ستأتي إليك مهما طال الزمان، ولكن لا تستسلم ولا تقبل بالهزيمة بسهولة!

ثم واصل فرانك برزانة: تأمل يا بني وجوه الناس، تجد لكل شخص ملامح، لكنك ستكتشف مع ممارسة تأمل الناس أن هناك بعض الوجوه تشعرك بالتآلف معها من دون أن تدري ما السبب، ولكن الحياة علّمتني أن من نتآلف معهم هم من يشبهون أرواحنا، فالروح العاشقة تنجذب لمن يشبهها، وعلى ذلك يمكنك القياس، هذا غير أن الأرواح العاشقة تعطي وجوه أصحابها ميزة من بقية الأرواح، إذ أنك حين تشاهدها تشعر بلطف عذب يمرح في تقاسيمها، وتستطيع تمييزها حتى قبل أن تحدث أصحابها!

بعد هذا الوصف الممتع والمذهل، استشعر خالد لذة كبيرة في الحديث مع فرانك، فحديث الحب في ثقافة مجتمع خالد هو حديث ممنوع كما اعتاد عليه في السعودية، بل إن الحديث بهذه الطريقة مع كبار السن يعد جريمة عظيمة، قد تتسبب له في النبذ الكامل من أقرب الناس إليه، لهذا هو الآن يتعامل مع حالة نادرة جداً، حديث عن الحب ومع رجل في أواخر الستين من العمر، إنها فرصة ثمينة لا يمكن تفويتها!

مرت الأيام التالية على خالد قبل وصول صديقه عبدالله مملوءة بالحكايات والحكم برفقة الأمريكي العاشق فرانك، حيث أمضى معه يومين في غاية الجمال، كان فرانك يأخذ خالد إلى بعض المقاهي القديمة جداً، التي كان قد مر بها هو وكارولين، وكان حين يجلس فيها يبدأ بحكاية كل التفاصيل، ويتذكر كل الكلمات والضحكات التي نطقت بها حبيبته..

أحبَّ خالد الحب الذي يعيشه فرانك، وكان في كل مرة يحكي فيها له عن حبيبته يسأله خالد.. لماذا لم يكتب قصته أو يسعى في تحويلها إلى فيلم؟!

ثم يأتيه رد فرانك: فكرت كثيراً في هذه الخطوة ولكني كلما قررت التنفيذ أتراجع يا بني لا أدري، ولكني أشعر بأن قصتي عظيمة بالنسبة إلي؛ لأنها لي، ولا أظن بأنها ستكون كذلك للآخرين لهذا أتردد في تطوير الفكرة!

خالد: لا يا سيدي، أنت تعلم أن قصتك مذهلة، وهي مثل قصص العشق الرائعة والنادرة التي تملأ الكتب والروايات، ولكن قد يكون لديك سبب آخر؟!

فرانك: أنت ولد صالح وذكي، نعم أنا لدي سبب، وهو أنني أخشى من خلال كتابتها أو تصويرها أن تجعلني بطلاً على حساب كارولين، التي تستحق أن تكون كذلك، فوفائي لها ليس سوى بذرة من شجرتها المباركة، ولكن أخشى أن يتحدث الناس عني ويبخسونها حقها، لهذا أنا أرفض كل هذه الأفكار!

خالد: لا شك أن هذا قرارك، ولكنني كشخص سمعت الحكاية لا أتفق معك في مخاوفك، وأملي أن تفعل الفكرة، ويجب أن تتذكر أن تفعيلك الفكرة هو ذروة الوفاء، فأنت ستخلد كارولين مثلما خُدت جوليت وغيرها من العاشقات الرائعات، واعدد لي تدخل وتقمصي دور الناصح، ولكنه رأي أتمنى أن تفكر به..

فرانك: ليبارك بك الله يا خالد..

في الليلة الأخيرة قبل وصول عبدالله، ودع خالد صديقه فرانك بعشاء فاخر من دون أن يتبادلا أية عناوين، وفرانك العاشق، لم يكن قد تحدث لخالد وحده عن قصته، فهو وعلى مر السنين الطويلة لا يتوانى في سرد قصته على كل من يقابله، هو يقوم بتدوين حكايته بشكل آخر، لهذا هو لا يحرص على الارتباط الكلي بمن يرافقه؛ لأنه في كل مرة له مرافق، ومنذ وفاة كارولين وهو يتفانى في ترديد حكايته على كل من يقابل..

افترق خالد وفرانك بعد صحبة مملوءة بالمعاني، حيث عاد فرانك إلى مرسيليا ليزور قبر حبيبته، فيما ذهب خالد إلى أحد المقاهي يمارس التأمل في الوجوه، ويطبق ما تعلمه من صديقه العجوز من دون أن يغفل في جلسته فكرة البحث عن وجه لولوة بين الوجوه العابرة!

لم تكن الأيام الفائتة تحمل السعادة لقلب لولوة ومشاعرها، فقد أمضت أيامها برفقة شقيقتها في التنقل من مطعم إلى آخر بتنظيم دقيق، وفي ساعات النهار تمضيان الوقت بين المواقع التاريخية وبين الحدائق، وفي كل الوجوه العابرة لم يكن وجه خالد بينها، فقد غدا مثل الحلم، وفي كل خيبة جديدة تنطق مشاعل محاولة إقناع أختها بإلغاء الفكرة:

يا حبيبتي يا لولو، قسم بالله طفشنا وحننا ندور بتحفتك، صدقيني أنت تحترقين وهو تلقينه لاهي مع البنات ولا جاب لك خبر!

تغضب لولوة من مداخلة أختها وتنهرها بعنف:

اسكتي بس، إنت قاعدة تلومينه هو، وأنا اللي مضيعة الورقة اللي فيها رقمه، يعني هو ما له ذنب باللي قاعد يصير، بالعكس تلقينه هو اللي ها الحين يفكر إني لَعابة، وأني ضحكت عليه، عشان كذا ما راح أياس لحظة إني ألقاه؛ لأني حبيته وعشان يتأكد إني ما لعبت عليه!

ترد مشاعل بتذمر:

يخرب بيت خالد، وسنين خالد، وجيران خالد، والخطوط الفرنسية بكبرها، أنا من زمان أقول الخطوط الفرنسية ما تجيب إلا المصايب، والحين تأكدت يوم ركبتي معهم، لعنبو إبليسك وين نبي نلقاه؟! خليتيني أتعرف على تاريخ فرنسا بها اليومين، وكرهت أم اللي بنو الآثار بأسبابكم، وأخرتها معاك يا أميرة ويلز؟!!

ترد لولو: وش دخل أميرة ويلز؟!!

مشاعل بعصبية: أميرة ويلز ماتت بنفق هنا فباريس، ماتت من الحب، وأنت الظاهر ودك تموتين مثلها وتموتيني معك! يارب، يا رب، أرحمني من خبال أختي!

الفصل الرابع

- 1 -

استيقظ خالد قبيل العصر في يومه الرابع في باريس، فهو منذ يومه الأول قد استبدل برنامجه السياحي بين المقاهي والسهر، إما مع فرانك وإما في غرفته، لهذا أصبح يستيقظ متأخراً..

ولكن هذا اليوم ليس كبقية الأيام السابقة، فالיום يصل صديقه عبدالله، بل إن صديقه من المؤكد أنه الآن ينام في غرفته في نفس الفندق الذي يسكنه خالد..

أحس بحماس كبير ولهفة لوصول صديقه.. فعبدالله سيساعده كثيراً على التخلص من وحدته التي خلّفها رحيل فرانك، وسيساعده على العثور على حبيبته المفقودة، والأهم مشاركته الوقت.. لهذا اتصل بموظفة الاستقبال في الفندق يسألها عن وصوله، وفي أي غرفة هو، ومتى وصل بالتحديد..!؟

عبدالله وخالد أصدقاء منذ الطفولة.. فهما يسكنان الحي نفسه، ودرسا في المدارس نفسها، ويتفقان إلى حد كبير في الهوايات وطريقة الحياة، وينتميان إلى أسر محافظة ورزينة، ولكن عبدالله لم يدرس في تخصص خالد الجامعي نفسه، حيث فضل تعلّم الحاسب الآلي.. وبالتالي فقد توظف بعد إنهاء الدراسة بشركة الاتصالات السعودية، والفرق بينهما أن عبدالله عاشق السفر لدرجة تجعله لا يمكن أن يبقى في الرياض لأكثر من شهر، كما أنه أكثر جرأة من خالد، ولعل أحد أسباب ذلك كونه لا يفكر بالعواقب أكثر مما يجب، لهذا تصل به جرأته إلى حدود التهور أحياناً، وهذا يتنافى تماماً مع شخصية خالد الحذرة، التي تفقده

في بعض الأحيان فرصاً كثيرة في الحياة، ويبدو أن الاختلاف في بعض الصفات هو ما جعل كل شخص يكمل الآخر، ويشكلان أجمل ثنائي يعكس روعة الصداقة فيما بينهما..

بدّل خالد ملابسه سريعاً واتجه إلى غرفة عبدالله، وبدأ يطرق الباب وكأنه يطرق على طبل ضمن فرقة موسيقية وهو ينادي صديقه، وطبعاً لم يدم طرقه طويلاً فصاحبه يمتلك اليوم نفس حماس خالد في اليوم الأول، ولذا هو مستيقظ وكان يستعد للبحث عن خالد..

تعانقا بالباب بفرح كبير، وبدأ خالد يمازحه، ويقول له، متخيّل يا بوعابد أننا الحين في باريس..!

خرجا من الفندق بسعادة كبيرة واتجها للشانز، كانت السماء كريمة هذا اليوم، فمنذ ساعات الصباح الأولى وهي تمطر، لكنها بدت الآن وكأنها تأخذ قسطاً من الراحة..

أجواء الخريف تهب من فوقهما وهما يضحكان ضحكات اللقاء، وعبرا الطريق الفرعي إلى الشانز بخفة، وكان عبدالله قد بدأ يشاغب صديقه بكلمات وأسئلة جاءت من كل حذب وصوب..

عبدالله: هاه يا خالد أبيك تحكي لي كل شي صار لك بالتفصيل الممل من طلعت من الرياض لين شفتك، علّمني عن كل مغامراتك، بس يرحم أمك لا تقول لي وش صورت ترى أنا حكاية التصوير هذي ما هي جاية معاي، وأنت ما شاء الله عليك لك خلق تصوّر حتى ظلالك، عشان كذا لا تضيع وقتي وتسولف عن التصوير والمتاحف والآثار؛ لأنني مليت من كل شي فيها..

أبي أخبار الحب، عارفك ما وراك حب بس أبي أعرف من شفت وكيف تصرفت؟!

خالد: شوي شوي لعنبو إبليسك صاير محطة إذاعية، ترى توني شايفك أصبر خلنا نجلس بقهوة، وناكل شي، ونتقهوى، ونسولف..! ضحكا ضحكة تصالح، وقال عبدالله: أجل خلني أوديك لمقهى أحبه حيل لأنني داري أنك ما جبت خبره!

الكلمات الأخيرة أعلنت استلام عبدالله للقيادة المطلقة، فهو خبير في باريس ويعرف كل تفاصيلها الصغيرة، لهذا استسلم خالد لأول اقتراحات صديقه، وتوجها سوياً إلى حيث المقهى الموعود..

في آخر المباني باتجاه متحف اللوفر وعلى الرصيف الأيسر يقبع مقهى ومطعم أنيق، يدعى سابقاً «مديقال» وحالياً «uni sex» فوق أبوابه مظلة حمراء وفي داخله إضاءات توحى بأنه حانة، أو نادٍ ليلي أكثر من كونه مقهى ومطعماً، وأمامه هناك عشرات الطاولات والكراسي وتظللها المظلات الحمراء..

وصل الصديقان إلى المقهى، وقبل أن يدخلوا استقبلهما رجل بملامح أوروبية، أنيق المظهر، يدعى لوкас وما إن شاهد عبدالله حتى ابتسم وسلّم عليه بحرارة بالغة وبدأ يستفسر منه عن موعد الوصول، وما المدة التي سيجلس بها في باريس، وقام عبدالله بتعريف صديقه خالد على لوкас.. ثم أوصلها إلى طاولة في منتصف المقهى ونادى لهما النادل المسن الذي رحب بعبدالله هو الآخر بشوق ولكنه اعتذر عن خدمتهما؛ لأنه اليوم يعمل في الطرف الآخر من المقهى ونادى النادلة المسؤولة عن خدمة المكان وطلب منها أن تهتم بهما..

النادل المسن يبدو أنه في منتصف الستينات، فرنسي الجنسية، لا يجيد كثيراً أي لغة غير لغته الأصلية، تجاعيده وكبر سنه تثير الشفقة عليه، كيف يعمل في مثل هذه المهنة الشاقة، وكيف يتحمل ساعات العمل الطويلة، وكيف يستطيع التعامل مع رواد المقهى بمختلف جنسياتهم ولغاتهم..؟!

يحصل هذا المسن هو وبقية العاملين في مثل مهنته على ثمانية يوروات في الساعة الواحدة، ويعمل في أوقات السياحة برغبته بحدود العشر الساعات، ولكنه يستفيد من «البقشيش» الذي يتركه الزبائن له، يدعى هذا المسن فافلو وهو من قرية بعيدة في الريف الفرنسي، وقد عمل في هذا المقهى منذ سنوات بعيدة جداً، وليس له أي عائلة أو مكان في قرينته، لهذا هو يستقر في باريس منذ زمن، ويسكن في غرفة صغيرة بأحد الأحياء التي تكتظ بالمهاجرين غير الشرعيين، ولم يعد بعد كل هذا العمر قادراً على ممارسة أي عمل

آخر، لهذا يبقيه المالك احتراماً لتاريخه مع المكان، ولحاجته إلى المال لكي يعيش حتى يموت..!

جلس الصديقان متقابلين على طاولة أنيقة، وبعد ثوانٍ من جلوسهما وقفت عندهما فتاة في العشرين من العمر، تشبه عارضات الأزياء، نحيفة بشكل واضح، ولكنها تحمل وجهاً طفولياً ناضجاً، عيناها الزرقاوان تمنحانها خصوصية لا تتوافر كثيراً بشكل طبيعي، وترتبط شعرها الغزير فوق رأسها بربطة بيضاء، وكأنها تسجنه في هذا الشكل بعد أن تمرد عليها وعلى ما تحمله للزبائن، وفمها الصغير المبتسم يخفي أسناناً متناسقة ومنضبطة كأنها جنود في أحد الجيوش..!

ابتسمت هي أيضاً لرؤية عبدالله، وما إن شاهدها حتى ابتسم هو الآخر وقال بعفوية: ساندا..!

ساندا فتاة من رومانيا، جاءت إلى باريس قبل عدة أعوام بغرض الدراسة، ولكنها عانت كثيراً من التكاليف الباهظة للدراسة وللحياة بشكل عام في مدينة مجنونة مثل هذه المدينة..

تدرس ساندا الفلسفة في إحدى الجامعات الفرنسية، وهي تجيد اللغات بشكل رشيق، ولذا فهي تستغل فترة الصيف لتعمل بكد كبير في المواقع السياحية حتى تجمع بعض المال الذي يعينها على تحقيق أحلامها الدراسية، وهذا هو طابع جميع الطلاب في العادة، ففي الصيف تمتلئ المحلات والمقاهي، وحتى الحانات ومدن الملاهي بالطلاب الذين يتقدمون لهذه الأعمال، مرغمين للحصول على المال، ويتم تعيينهم بسرعة كبيرة خاصة أولئك الذين يجيدون عدداً متنوعاً من اللغات؛ لحاجة مواقع العمل إليهم في مدينة سياحية كهذه؛ ليستطيع أصحاب المصالح الإيفاء بخدمات السياح، وكثير من الطلاب يستهوي هذه الأعمال، وبعد مرور فترة من العمل، ومع تزايد طلبات الحياة يبدأ الشاب بتمزيق أحلام الدراسة، ويستسلم لحياة الكد والعمل، وهذا ما ترفضه ساندا على الإطلاق..!

طلب عبدالله القهوة وبعض الساندويتشات الخفيفة، بينما ارتسمت على وجه خالد دهشة عريضة من هول ما شاهده من استقبال وحفاوة، وتذكر كيف كان العاملون في المقاهي قبل هذه اللحظة يعاملونه بنفور وخشونة، وكيف كانت تمر أوقات طويلة حتى يحضر الطلب الذي يطلبه، وتعد خشونة العاملين في المقاهي الفرنسية سمة لا يمكن ألا يلحظها السائح..!

ابتسم عبدالله ابتسامة تخفي الخبث والشعور بالنشوة، وأحس أنه قد أبهر صديقه بما حصل قبل قليل، ثم التفت إلى خالد وقال: هاه وش رأيك بي ها الحين؟!

خالد بانبهار: يا ساتر، تصدق حسيت إني خوي مع أمير، صحيح انبسطت أنهم يعرفونك بس حسيت إني كرسي رجله اليمين مكسورة يعني ما يصلح لشي أبد..!

ضحك عبدالله وقال: اسمع يا الكرسي والله ما شفت شي أبي أوريك اللي بعمرك ما شفته بس أنت أرحمني واللي يرحم والديك من اللوفر وإيفل وخرابيطك اللي ما لها سنع..!

ثم أكمل: بس تصدق أعجبتني فكرة إنك خوي وأنا أمير، أنا من زمان وأنا أحس بهذا الشعور بس ما جت مناسبة عشان أقول لك..!

خالد: أقول يا زينك ساكت، أقول لا تخليني أناديهم ها الحين واحد واحد وأقول لهم أن ما يطبخ لنا بالاستراحة وبالبر إلا أنت، والله لا أقول لهم أن أمك مدمنة ديرم وإن خالتك تاكل الكريم تحسبه زبادي، أركد بس أحسن لك..!

فجأة وفي أثناء مزحهما مر من أمامهما موكب راجل، يتقدمه شخص يبدو مهماً وخلفه عدد كبير من المرافقين والحراس، ما أربك خالد وجعله يلتفت على صاحبه بدهشة ويسأله: وش السالفة..؟!

ضحك عبدالله وقال: أنت توك ما شفت شي، يا حبيبي هذي بداية المناورات العسكرية، اللي تشوفه هذا استعراض يومي وعرض عسكري للقدرات الخاصة، المناورة هذي هي

الأولى، وعلى مدار الليل بتشوف مناورات ثانية من نفس الشخص، والموكب اللي مر هو بداية لمواكب ثانية بس أنت إلزم الصمت وشغل عيونك وأذانك لأنك بتشوف وبتسمع أشياء ما كنت تتخيّلها بحياتك..!

خالد: طيّب من هو هذا وليش كذا..!

عبدالله: قلت لك شغل عيونك وركز، هذا شخص مشهور واللي معه المرافقين..!

خالد: يا أخي وليش ها البهجة طيّب؟!

عبدالله: استعراض قوى، وبعدين ترى حنا هنا بباريس، بلد الحرية، كل واحد يسوي اللي يبي..!

خالد: بس ما هو للدرجة هذي، يا أخي هذا مشهد يقهر، ويطلعنا حنا السعوديين بشكل سخيف..!

عبدالله: يا عمي اطلع من راسي وأترك تحليلاتك في صدرك، هذولا عندهم كل شي بس ما يقدرن يمارسون الاستعراض قدام الناس إلا في السفر، والله جاب لهم الشانزليه هدية من السماء عشان يستعرضون بحرية، فأنت اترك القيم والمثاليات وناظر بس، شف العالم المخملي كيف يتصرف، ترى الحياة بها الشارع مسرحية كبيرة وها المواكب مشاهد بسيطة منها عشان كذا أنبسط وأنسى..!

خالد: طيّب ما قلت لي وش حكاية الحفاوة من العاملين..؟!

عبدالله: والله شف، أول شي بصراحة أنا أجلس هنا كل ما جيت لباريس بشكل يومي، الشي الثاني إنني أتعامل معهم بلطف كبير وأمازحهم، وأحسسهم بإنسانيتهم، يعني أعاملهم كأصدقاء، والشي المهم أني أدفع «بقشيش» كويس، وبالليل يوم تزدهم أدفع للوكاس المقسوم ويعطيني طاولة!

خالد: يا ساتر، تدفع عشان تأخذ طاولة؟!

عبدالله: طبعاً، بالليل يبدأ عرض جديد من فصول المسرحية، كل ها الطاولات اللي هنا تجي وتشوفها فاضية لكنها كلها محجوزة!

خالد: سينما هي عشان تحجز؟!

عبدالله: يا سلام عليك، هي سينما زي ما قلت أنت، بس كل يوم عرض مختلف، يعني ربنا يجون هنا، البنات تحسهم راياحات عرس، ماكياج وعطورات وتسريحات وأزياء على الموضة، وأما الألباس والساعات والشنط قسم بالله تحس أنك تشوف محل مو بنت، يعني كل وحدة تحتاج لحراسة أمنية مشددة عشان لا تنسرق، لكن للأسف بالغالب اللي تلبسه أغلى منها ومن تفكيرها..!

خالد: دوختني الله يرحم والديك وش تقول أنت..؟!

عبدالله: أنا قلت لك عن البنات بس تعال شف مواكب الشباب والناس الكبار، كل واحد منهم له طاولة، نفس الطاولة من سنين طويلة، ونفس الجلسة، ونفس المرافقين، ونفس الطلبات، تحس أن المشهد يعاد كل سنة وكل يوم بشكل ممل!

خالد: طيب وين المتعة بها السيناريو؟!

عبدالله: والله أنك على نياتك، لكن تدري خلنا نأجل الكلام لين يجي الليل وتشوف بعينك كل شي وأترك لك الحكم!

خالد: طيب ما قلت لي كم تدفع للوكاس..؟!

عبدالله: أنا لأني صديقه أدفع خمسين يورو، وأحيان إذا الأمور مزحومة مرة أدفع مية يورو؟!

خالد: ياسا اتر مية يورو عشان تجلس وتشرب قهوة بعشرة يورو..؟!

عبدالله: يا ربي إنك ما تفهم، يا حبيبي أولاً من قال لك إن كوب القهوة بعشرة يورو، هذا تلقاه بأي مكان بعيد عن هنا بالذات وبعيد عن الليل، الكوب الواحد هنا يمكن يتجاوز سبعين يورو، ثانياً حنا ما اتفقنا أن السالفة سينما ومسرح، خلاص أذفع وأنت ساكت وإذا ما هو عاجبك دور لك ديرة غير باريس وشارع غير الشانزا!

خالد: طيب واللي ما هو صديقه كم يدفع..؟!

عبدالله: يدفع أربعمية يورو غير «البقشيش» وغير الهبات الخاصة!

خالد: يا أخي ماني مستوعب، في باريس ويصير كذا، وين الحكومة الفرنسية بلد الديمقراطية لا تشوف لها حل بها الابتزاز..؟!

عبدالله: أول سؤال أحس فيه مخ، ذبحتني دلاختك..! يا صديقي هذا تصرف ممنوع في فرنسا، ولو يشتكي واحد يمكن يقفلون محله، تدري كان فيه هنا بباريس مقهى خطير، وذوق، ومزحوم طول الوقت، وكانوا يجلسون السعوديين بالتحديد بمبالغ كبيرة جداً، وطبعاً شي مؤسف تمر من عند مقهى وتلقى الطاوات فاضية وهي بالحقيقة محجوزة، بعد ما يروحون للكوافيرات وبعد ما يتمشون ويتعشون يجون للمقهى يلقون طاواتهم جاهزة..

ومن الطبيعي لو يمر أي أحد ويشوف الطاوات فاضية تلقاه يروح ويجلس بدون كلام، لكن العاملين يجون ويقنعونه أنه محجوز ويمشي، بس مرة جت وحدة فرنسية وجلست وقالوا لها محجوز ولا ردت عليهم، حاولوا يقنعونها بأي طريقة لكنها رفضت وقالت ما فيه شي اسمه حجز من حقي أجلس، المهم عصب راعي المقهى وتهاوش معها وضربها، وهنا قامت الدنيا، وجت الشرطة..! وبعد كذا رفعت الفرنسية على المحل قضية وصدر قرار بإقفاله نهائياً، تخيل..! عشان كذا ها الحين لو يجي واحد فرنسي ما هو سائح ويبي يجلس

يسكتون لين يمشي، وإذا حسوا أن حجوزاتهم ممكن تطير يجيبون ناس ويقعدونهم
ويدفعون لهم شي رمزي عشان يحجزون الطاولات..!

خالد: يخرب بيتك يا عبدالله كاشفهم بقوة، صاير مخابرات وأنا خابرك مضيع ولا تفهم..!

عبدالله - يضحك ثم يقول -: قلت لك هنا خلك زيب، فتح عيونك واسمع زين، ولا تخلي
شي يفوتك، وراح تكتشف أسرار ما يمكن أنها تخطر فبالك..!

المشاهد المتوالية التي صعقت خالد أنسته أن يتحدث لصديقه عن حنينه الذي جعله
ينسى التصوير والمتاحف وينسى حتى نفسه، بينما عبدالله وجد في جهل خالد بخفايا
السعوديين في باريس متعة كبيرة، بحيث يكون الرجل المبهر وصاحب الخبرة والرؤية،
لهذا هو نسي أيضاً أن يسأل خالد عن ما كان ينوي معرفته، وهام في شرح المشاهد الغريبة
التي تمر بهما..

لم يكن عبدالله مبالغاً في حديثه عن السعوديين المخمليين ومرافقيهم في باريس، فقد
اعتاد الفرنسيون منذ زمن على تصرفاتهم السنوية وبذخهم المجنون واستعراضهم أمام
بعضهم بعضاً بطريقة تثير كثيراً من الأسئلة عن مستوى تفكيرهم..

ففي موسم الصيف يهطلون في باريس مثل المطر، ومع وصولهم تنشط كل المصالح
التجارية، مثل المقاهي والفنادق، وسيارات الأجرة الخاصة والفاخرة، ومحلات التجميل،
والمطاعم والحراسات الشخصية، وحتى سوق العشق الممنوع..!

اعتاد السعوديون المخمليون على تقسيم مقاهي الشانزليه وطاولات كل مقهى، فكبار
القوم من الرجال والنساء لا يجلسون في مقهى واحد، وإن فعلوا لا يتجاورون، وتقسم
ساعات اليوم بشكل متناسق بحيث توزع بين ثلاثة أماكن على الأكثر، فيما تتنوع خياراتهم
في المطاعم ليلاً، وبين كل فترة وأخرى يبدأ أحدهم بالعرض العسكري الذي أشار إليه
عبدالله، ونادراً ما تتم العروض والمواكب الراجلة بعضها مع بعض، فكل شخص يتحین

خلو الطرق من غيره، ثم يقوم بجولته واستعراضه اليومي برفقة عدد كبير من المرافقين والحراس في مشهد اعتاد عليه العاملون في محلات الشارع!

من النادر جداً أن تجد هؤلاء يجلسون كعائلة في مكان ما، فالرجال يعيشون أجواءهم والنساء والأطفال في عالم آخر وجلسات أخرى تشابه في المضمون ما يفعله الرجال..

خرج خالد وعبدالله من المقهى واتجها إلى محل يقدم الشيشة، فعبدالله من هواة المعسل، لهذا اتجها إلى المقهى الإيراني القريب من الفندق الذي يقطنون فيه، وما إن جلسا حتى تذكر عبدالله أسئلته التي لم يأخذ إجاباتها، وقال لخالد: أيوه.. قل لي ها الحين وش سويت من جيت هنا..؟!

سؤال عبدالله التقليدي أخرس لسان خالد المملوء بالكلام، بقي بلا نطق إلا من كلمات حزينة تسبح في عينيه ولا تجد دروباً للشواطئ..

شعر عبدالله بشيء غريب في صمت صديقه، شيء يوحي بمشكلة لا يدري ما هي!

عبدالله بصوت مفجوع: وش فيك يا خالد، عسى ما شر..؟!

خالد: والله مدري وش أقول لك، ومدري مينين أبدأ..؟!

عبدالله: تراك خوفتني، أبدأ من اللي تبي، خلصني، وش السالفة؟!

وبدأ خالد يسرد حكايته لصديقه من مطار الرياض حتى لحظته هذه، وعبدالله المتهور بطبعه وغير المبالي كان يحسن الإصغاء، ويتفاعل مع مشاعر صديقه من البداية حتى آخر ما وصل إليه، ولكنه بعد كل ما سمع قال: حب في الطريق إلى باريس، يا عيني عليك يا خالد، يعني ما صبرت حتى توصل، على طول تحب؟! شي حلو بس وين المشكلة بالموضوع؟!

خالد ينظر لكأس الشاي الذي أمامه بغضب ثم يقول: تبيني آخذها الكاس وأصكه بجبهتك يعني، ها الحين قاعد أقول لك من جيت وأنا أنتظرها تتصل وما اتصلت وتقول وين المشكلة..؟!

عبدالله - وهو يبتسم -: يا أخي يا زينك وأنت تحب، ويا زينك وأنت معصب، لكن صدقني أنا فاهم اللي تبيه بس أبيك تعرف عدة أمور دامك طحت بالحب ومحد سمي عليك..

البنات بالغالب لَعَابَات، تلقاك بحياتها رقم لا أكثر، وعادة البنت إذا خذت رقم تسوي نفسها ثقيلة وتحاول ما تتصل على طول عشان تعلقك فيها، وعشان ما تحس أنت أنها خفيفة، فاللي صار شي طبيعي وهذا اللي يخليني أقول وين المشكلة فهمت؟!

خالد: لا ما فهمت، ولا أبي أفهم ها الخرابيط، يا عبدالله لولو غير كل البنات، وأنا رغم أن كلامك هذا جاء في بالي إلا أني رجعت ورفضته، والله يا صديقي هي بنت مختلفة ومستحيل تكون لعبه لكن اللي مجنني ليش ما اتصلت ليش..؟!

ثم يضيف خالد: يا كبر الفرق بين تفكيرك وتفكير فرانك..؟!

عبدالله: ومن هو فرانك بعد..؟!

ثم حكى خالد لصديقه عن قصة فرانك، وما إن انتهى حتى قهقه عبدالله بأعلى صوته وقال: تأكدت الآن يا خالد إنك مهبول، أجل فرانك ها الخبل أعجبك؟!

خالد - بغضب -: الخبل والله أنت واللي يجلس معاك..!

عبدالله: خلاص، خلاص، أبي أمشي معك لكن أبي أذكرك ولا تنسى، أنا متأكد إنك الليلة راح تشوف وحدة ثانية تعجبك وراح تحبها وتنسى لولوتك..!

خالد: لا مستحيل يصير ها الشي، يا عبدالله أفهم، أنا قد تعرفت على بنات، وشغلي بالبنك خلاني أسولف مع زميلات، ولا فيوم حسيت أني حبيت، ما قد شعرت أن قلبي وتفكيرني

يتعلّق بإنسانة، كانت لولوة صورة لأحلامي، كانت أميرتي اللي أدورها، وفيها مواصفات الزوجة والحبّية، فأرجوك لا تستهتر بمشاعري وأطلع من أفكارك المنحرفة شوي..!

عبدالله: زوجة..! يا أخي أنت مدري وش تبي، قد شفت سعودي تزوج بالطريقة حقتك؟!..
بعدين أنت تدري من وين هي تناسبك أو لا، ما يصلح كذا لازم تعرف عنها ولو شي بسيط
علشان على الأقل أأيّدك وأشجعك، عشان تقرر أنها تصير زوجة، صدق أنك ما قد شفت
خير، درعمت من أول نظرة..!؟

خالد: يا صديقي طز في كل شي، والله لو تتصل وترجع وأتأكد من حبها لا أتزوجها لو تطلع
من الجن..!؟

ثم ترق كلمات خالد وتتحول إلى استعطاف ويقول: يا عبدالله أنا تعلّقت بالبنّت، تكفى يا
صديق العمر شف لي طريقة، كيف أبي ألقاها، وليش ما اتصلت..!؟

عبدالله بعد أن أدرك أن صديق عمره عاشق حتى الثمالة، تأكد أن أي حديث آخر غير
البحث عن لولوة ليس فيه أي فائدة، بل ويمكن أن يتسبب في زعلهما وتفرقهما لهذا قال:
طيب، أبشر، خلني أعسّل زين وأفكر كيف نجيب لك الأميرة الباريسية الضائعة..!

- 2 -

في بهو فندق الفورسيزون تشير الساعة الآن إلى العاشرة مساء حينما عبرت لولوة
وشقيقتها برفقة والديهما باتجاه الباب الخارجي وقبل الوصول إلى الباب يلتفت الوالد إلى
ابنته مشاعل ويسألها: المطعم اللي بنروح له بعيد..!؟

مشاعل: لا أبداً طال عمرك قريب مرة من هنا..

الوالد: يعني نروح مشي..؟!!

مشاعل: لا طال عمرك بالسيارة أفضل؛ لأنه في الشوارع الخلفية والمشي فيها صعب شوي..!

الوالد: توكلنا على الله..

كانت مشاعل ومن ضمن خططها للبحث عن خالد، الذهاب إلى جميع المطاعم التي يزورها السعوديون، خصوصاً القريبة من الشانزلزيه، لعلها تصادفه وتنتهي معاناة أختها العاشقة، لهذا اختارت هذا المساء مطعماً إيطالياً جميلاً يدعى «casa di deflo» المطعم يقع في أحد الشوارع الخلفية للشانز، المطعم ككل مطاعم العاصمة الباريسية لا يجد مساحة كافية خاصة في هذه المنطقة السياحية المهمة، لكنه مقصد للزوار لما يقدمه من أكل شهني إضافة لرومانسية المكان، حيث الإضاءة الخافتة والثريات الكريستالية الفخمة، وتزين سقفه بعض الرسومات التي تحيطها عروق من الخشب العتيق، ويتميز بطاولاته وكراسيه التي تشعر الجالس عليها أنه ينتمي للقرون الوسطى؛ لفخامتها وقدم تصميمها، وتضفي الأغنيات الإيطالية الهادئة التي تجوب المكان جواً من الروعة تجعل الموضوع بالنسبة إلى من يقصده أكبر من كونه تناول عشاء فقط، لهذا لا بد أن يقوم من يرغب تناول وجبته فيه بالحجز منذ وقت مبكر على الأقل وهذا ما فعلته مشاعل..

- 3 -

في منتصف الرصيف بجادة الشانز كان خالد وعبدالله يقفان للتباحث حول اختيار المطعم المناسب الذي سيتناولان فيه عشاءهما، كانت خيارات خالد تتجه لأي مطعم عربي؛ لأنه اشتاق للأكل العربي، بينما كان لعبدالله رأي مختلف باعتبار أن المطاعم العربية يجب أن

تكون الخيار في الدول العربية، أما في باريس فلا بد من خيارات دولية راقية، لهذا أصر عبدالله على أن يأخذ خالد إلى المطعم الإيطالي..!

عبدالله: فيه مطعم إيطالي خطير اسمه «casa di deflo»، جلسته بس ترد الروح، وقريب من هنا خلني أعزمك فيه الليلة، ويا أخي إذا ما أعجبك أترك لك تقرر من بكره، بس طيعني وتذكر أنك أول مره تجي وما شفت كل شي..

خالد: إيطالي، إيطالي، مشينا..

لم يستغرق الطريق إلى المطعم وقتاً طويلاً، كانت لولوة وعائلتها تجلس في مكان قريب من باب المطعم، ما يمكنها من رؤية كل من يعبر من الباب حتى لا تضيع فرصة العثور على خالد، وهذه طبعاً تعليمات مشاعل الصارمة، وعليه سيكون أمر رؤية خالد هذا المساء أمراً في غاية السهولة..!

اقترب خالد وعبدالله إلى المطعم، وقال عبدالله لصديقه: شوف يا خالد قبل ما نقرر الجلوس أنت شوف قائمة الطعام «المنيو» وإذا حسيت أنه ما راح يعجبك نغير ترى حنا فباريس لازم تشتغل الديمقراطية شوي..!

وافق خالد وهو يبتسم على قرار صديقه واتجها بالفعل إلى باب المطعم، عبر عبدالله أولاً ثم وفجأة رن جرس هاتف خالد قبل أن يدخل وحينما نظر إليه وجد أن من يتصل به هي والدته، تراجع إلى خارج المكان قبل أن يدخل، وبدأ يحكي مع والدته التي كانت تطمئن عليه وتسأله عن أخباره، استمرت المكالمة لوقت غير طويل، وبعد أن أقفل الهاتف هم بالعودة إلى المطعم ليفاجئه عبدالله بخروجه..!

خالد: ليش طلعت..؟!

عبدالله: ما فيه حجز، كان لازم نحجز بالتليفون أو بموقع المطعم..!

خالد بسخرية: بالله عليك، ها الحين جايبنا كل ها المشوار وآخرتها ما فيه حجز؟!

عبدالله: يا الله جت من حظك، بنروح للعجمي مطعم عربي قريب من هنا، أبي اعتبره تكفير ذنب وإلا ماني مقتنع أننا نأكل بمطعم عربي في باريس..؟!

خالد: وإذا قالوا لنا لازم حجز..؟!!

عبدالله: لا تخاف، المطاعم العربية هنا فيها من الروح العربية يعني كل شي يمشي..!

كانت لحظات بسيطة جداً وترى لولو خالدها الذي أضناها البحث عنه، ولكن القدر لا يبتسم دائماً، فحين عبر عبدالله باب المطعم تلاقى نظرات الشقيقتين، عينا مشاعل تنساء لان هل هو خالد..؟! وعينا لولو تردان بالنفي..!

كانت لولو تشعر بشيء غريب يسري في جسدها منذ دخلت هذا المطعم، ولكنها لم تكن قادرة على ترجمة الشعور، وحين خرج عبدالله من الباب كانت تتابعه بالنظر عله يلتقي بشخص آخر، ولكن مساحة الزجاج لم تكن كافية لأن تظهر لها أكثر مما شاهدت لهذا عادت لخبيتها تتأمل الطعام الذي لا تريده، ولكنها مرغمة على تناوله لكي تسير الأمور مع والديها بشكل طبيعي..!

- 4 -

خرج خالد وعبدالله من مطعم العجمي وهما يبتسمان معلنان حالة من الرضا تجاه المأكولات اللذيذة التي قدمت لهما، كانت ريح الخريف تهب من كل حدب وصوب، ريح

باردة استقبلتهما منذ لحظة الخروج من المطعم، ولكنهما لم ينزعجا منها كثيراً، فقد امتلأت أنفاسهما بشهور من صيف الرياض الناري، ولعل أحد أهم أسباب وجودهما في باريس هو البحث عن الطقس البارد، فالسعوديون مثلهم مثل الطيور المهاجرة يحركهم الحنين إلى الطقس الملائم في كل الأوقات..

خالد: وين الوجهة ها الحين يا الدليل السياحي..!؟

عبدالله: أول شي راح نسوي جولة على الشارع، نتفقد الوجيه، وعند كل مقهى نوقف شوي عشان تتأمل الموجودين يمكن تلقى أميرتك الضائعة..!

وبعدين أبيك تشوف الوجه الثاني للأماكن في الليل، وتشوف ربعنا وش أحوالهم في الليل، ثم نتوجه لحبايبنا في مقهانا اللي جلسنا فيه العصر، عشان نكمل السهرة هناك؟!

وافق خالد على الاقتراح وسار مع صديقه بانتباه كبير، فلا تكاد تمر به فتاة إلا ويرمقها بدقة!

كان الشارع يعج بالسائحين، المقاهي ممتلئة بالكامل بالناس، ورائحة البخور ودهن العود تفوح منها وكأنك في حفل زواج سعودي، بدءاً من هذه الساعة بالتحديد حتى ساعات الفجر الأولى سيكون الشارع ملعباً للعرب وللسعوديين بشكل خاص، الرجال في جماعات والفتيات في جماعات أخرى، ويمضون طوال الليل بين المقاهي والاستعراض على الأرصفة، ومن الأشياء اللافتة أن كل عائلة لديها أم كبيرة مع بناتها دون الرجال، تتخذ العائلة مقراً لها في أحد المقاهي، ثم يجلسون الأم لحجز الطاولة فيما تقوم الفتيات بالتجوال والاستعراض بين المقاهي وهن في أبهى حلة، ولهذا السيناريو عدة مآرب، منها لعل الفتاة تتوفق باصطياد زوج من الطبقة المخملية بحيث يراها ويعجب بها، ومن ثم يبحث عن اسم عائلتها وفيما بعد يخطبها، وهناك مآرب أخرى وهي البحث عن علاقة عاطفية تحتتمل كل الاحتمالات..!

جاب خالد بنظره كل ما مر به عله يجد ما يشبه أميرته، لكنه في كل مرة يتأكد أن لولة ربما ليست في باريس، أو أنها حلم وانتهى، وكلما فكر بها وفي غيابها غير المبرر تنتابه حالة من الحزن المملوءة بالأسئلة التي لا تجد إجابات..؟!!

أقبل الصديقان على مقهى «uni sex»، كان المشهد في المساء لا يشبه أبداً مشهد النهار، بجانب المقهى تقف سيارات فخمة، توحى بأنك الآن تتجه إلى مقر اجتماع يضم رؤساء دول أو اقتصاديين، فالحراسات الأمنية تنتشر في كل مكان، والسائقون يتناثرون بين سياراتهم التي تقف في مواقع غير مسموح بها الوقوف نهائياً، ولكن الوضع غير الطبيعي والتمرد على المنطق وصل إلى السائقين وتفاعلوا معه، حتى لا يفقدوا فرصة العمل مع هذه الطبقة الثرية، لذا هم يتجاوزون الأنظمة من دون تردد..؟!!

جمهور كبير من السياح غير العرب يقفون بالقرب من سيارة «فيراري» مطعمة بالذهب تعود ملكيتها لشاب سعودي؛ ولأنه سعودي فقد استبدل لوحاتها الفرنسية بلوحات سعودية تحمل رقماً وحروفاً مميزة كنوع من الاستعراض، بينما يجلس هو يراقب السياح البسطاء وهم يلتقطون الصور مع سيارته، ثم يقوم بالالتفات في كل الاتجاهات ليطمئن هل الموجودون بالمقهى - وخاصة البنات السعوديات - يثيرهم هذا المشهد..؟!!

يتجه عبدالله إلى لوكاس وقد دس في يده خمسين يورو، ثم وحين اقترب منه صافحه بحرارة، ومن دون أن يطلب عبدالله أي طلب وقف لوكاس يتأمل ما هو متاح من الطاولة ليجلسهما، لكن وقبل أن يأخذهما استفهم من عبدالله بصوت خافت هل يرغب أن يجلس بجانب فتيات أم لا..؟! وطبعاً وافقه عبدالله على ذلك ثم انطلق بهم إلى طاولة صغيرة تحفها العائلات من كل حذب وصوب وهذا ما أراده لوكاس كنوع من الترحيب بصديقه السعودي..!!

تقابل الصديقان على طاولة وكأنهما سارقان، كل الأحاديث هامسة فما حولهما كان جمع من الفتيات السعوديات وستحسب عليهما كل كلماتهما التي ستقال، ولهذا سيكون عليهما أن يتفرغا لمتابعة الوضع أكثر من الكلام..

لم يكن الوضع مريحاً بالنسبة إلى خالد، لهذا همس إلى صديقه قائلاً:

يا أخي وش هذا، تبينا نجلس ساكتين طول الجلسة..؟!

عبدالله: إلى حد كبير، يا خالد نسيت إننا اتفقنا أن المقاهي سينما، وأنت عمرك شفت ناس بالسينما يسولفون..؟!

خالد: لا بوها من سياحة..؟!

عبدالله: الليلة خلك متأمل، ناظر واسمع، بعدين نتفاهم..!

بدأت الفتيات حول طاولة الصديقين وكأنهن في صالة أفراح، زينة وملابس فاخرة وألماس، وفي وسط كل كوم من الفتيات هناك امرأة كبيرة أو أكثر، فيما تقوم الخادמות الآسيويات بملاحقة الأطفال على الأرصفة..!

أحاديث الفتيات العامة توحى بأنهن في مجلس عائلي غير أبهات بالمكان والزمان، وكلما مرت من أمامهن فتاة تبدأ حكايات النقد ومن الممكن أن يصل الحديث إلى أدق التفاصيل، وحين تجلس في طاولة غير بعيدة عنهن فتاة جميلة لا يعرفن عنها كثيراً تشتعل الغيرة، وفي نهاية المطاف تتفق البنات بأن بياضها وجمالها يؤكدان أنها تحمل جذوراً غير سعودية «فيها عرق» كما يحلو لهن دائماً القول، كنوع من التقليل؛ لأن السعودية في نظرهن ليست من البشر..!

- 5 -

على طرف المقهى تقف «ساندا» النادلة الرومانية منهكة من ركض الساعات الماضية، وغاضبة من طلبات رواد المقهى، تقف بحسرة كبيرة وهي تتأمل السعوديات الباذخات في

اللبس، وفي الطلبات وترمق بعينيها الحراس الشخصيين والسيارات الفخمة، ثم تقارن وضعها وكدها بكل ما تشاهده ثم تتنفس بحرقه!!

ساندا التي تنهي عملها المسائي في آخر ساعات الليل، تضطر للجلوس داخل المقهى برفقة العجوز الفرنسي فافلو حتى تفتح محطة «المترو» مع ساعات الفجر، ثم تستقل قطارها الذي سينقلها إلى حيها البعيد جداً، وهي - كما هو العجوز - تتلافى استخدام التاكسي حتى لا تدفع ما ربحته في يومها لمشوار سيارة..

ساندا وفافلو يتشابهان في الشقاء مع اختلاف العمر والأحلام والطموح، ويمضيان عادة ساعات الانتظار بالحديث عن ذكريات الليلة، وفي دواخلهما تتشابه الحسرة من شقاء الحياة!!

ساعات الانتظار اليومية الخالية من طلبات الزبائن وُلدَّت بينهما نوعاً من حرية الكلام، كانت ساندا تشتكي له يومياً من معاكسات رواد المقهى، من الجنسيات كافة، ولكنها تشتكي دائماً من جرأة السعوديين والسعوديات على وجه التحديد!!

ففي إحدى الليالي وبعد أن أقفل المقهى أبوابه أقبلت ساندا إلى فافلو وفي محياها كثير من علامات الدهشة والحزن، اقترب منها المسن بروح الصديق يسألها عن سبب حزنها، فأخبرته أن إحدى السيدات السعوديات قد تجرأت معها وأبدت لها إعجابها ودعتها لقضاء سهرة خاصة وحميمية معها في غرفتها الفاخرة بفندق ماريوت المطل على جادة الشانزلزيه، الذي لا يبعد كثيراً عن المقهى وقدمت لها عرضاً مادياً يسيل له اللعاب!!

هذا العرض الجريء أضحك العجوز فافلو لدرجة أغضبت ساندا، وقال لها وماذا يغضبك من هذا..؟! أنت في هذه البلاد يا صغيرتي تملكين حرية القرار أياً كان، ولن يحاسبك أحد، فإذا كان ما قالته لم يعجبك فتجاوزيه مثلما تجاوزت غيره، وإذا كان ما قالته ضمن دائرة اهتماماتك ومما يستهويك أصلاً فعليك أن تأخذه على محمل الجد وألا تضيعي الفرصة الثمينة التي قد تغنيك عن شقاء هذا العمل!! وبسخرية تامة قال لها، إذا كان الأمر لا يعينك

فأقترح أن تعرضي عليها في اليوم التالي خدماتي فلربما أتزوج بها وأسافر إلى الصحراء
لعلي أستحم بالنفط.. قالها وهو يقهقه..!

- 6 -

بقي خالد ملتزماً ما قاله صديقه عبدالله، فقد تعلم خلال الوقت القصير الذي جلس به في
المقهى أن يطلق العنان لسمعه وبصره وبتركيز تام، فالعروض السينمائية المتوالية لا تترك
له فرصة إلا للاستفسار من عبدالله بالنظر، أو الإشارة فقط، وإذا أضر كثيراً يلجأ للهمس
المختصر، وإذا استدعى الأمر استخدم الرسائل عبر الهواتف ما يوحي أنهم لصوص أكثر
من كونهم في صالة سينما..!

كان المقهى حافلاً منذ البداية بالعروض السينمائية، لكنه بعد انتصاف ليل باريس تغير
بشكل جذري، فالطاولات التي بدت غير مشغولة كانت محجوزة لكبار الشخصيات الذين
يمارسون أطباعهم حتى في المقاهي، فهم يتعمدون التأخر في الوصول إلى المقهى لصنع
نوع من «البريستيج» والهيبة، لهذا زهل خالد حينما بدأ يشاهد المواكب التي تميز قاداتها
بشكل واضح، وهي تهطل كالمطر فوق الطاومات الفارغة، وزهل أكثر لعدد المرافقين،
فمنهم من يجالس القائد، ومنهم من يقف على مسافات مختلفة كنوع من الحراسة
المشددة..

لقد بدا هذا المساء وما حمله من أحداث مجنونة أكبر بكثير مما فكر به خالد طوال حياته،
ولم يكن يتوقع أن يجلس يوماً من الأيام بجانب مثل هذه الشخصيات، بل وعلى بعد أمتار
قليلة عنها، فالموقف بالنسبة إليه الآن لا يحتاج إلا للصمت، فحتى التفكير في مثل هذه
الأمر يعد مغامرة لا داعي لها!

مرت الساعات المتبقية من المساء وخالد يراقب كل من بالمقهى وشاهد تبديلاً كبيراً في طريقة جلوس الفتيات بعد وصول المواكب، بل إن بعضهن تجرأت وأخرجت المرآة والماكياج وبدأت تعدل من رسمه وجهها، وبعضهن انطلق إلى المرحاض ليأخذن حريتهن في التعديل بشكل موسع، وبعيداً عن مرأى الناس وكثر الهمس في الجلسات خصوصاً في طاولات الفتيات..!

ولأن المفاجآت لا يمكن أن تتوقف في هذا المقهى المجنون فقد بدأ العرض يأخذ مساراً جديداً أكثر إثارة، حيث لمح خالد المبهور حركات الغزل الساخنة والجريئة بين قادة المواكب والفتيات المنتشرات بين طاولات المقهى، كانت الحركات واضحة إلى حد كبير، وفي رمشة عين يتم الاتفاق بالنظر ثم يتولى أحد المرافقين إكمال بقية الحكاية بشكل يفهمه المرافق أكثر من أي شخص آخر!

لوكاس كان أكثر السعداء هذا المساء، فقد كانت كل المصافحات تحمل المال الوفير، فهو وبعد أن يتكاثر عليه الطلب يقف مثل مدرب كرة قدم خبير، يتأمل الطاولات بدقة متناهية استعداداً لإحداث تغيير يسهم في زيادة مداخليه!

ولوكاس هو رجل فرنسي مستثمر يستأجر المكان من المالك، بينما يقوم هو بإدارته بنفسه، بمعنى أنه هو المعني بكل شيء، لهذا هو يتجاوز الأنظمة الصارمة من قبل بلدية باريس ويقوم ببيع الطاولات على الزبائن كل مساء بمبالغ كبيرة جداً، وقد ساعده على هذا التمرد رغبة السعوديين الملحة، بل أن السعوديين هم من نبهوه لأمر كهذا حين كانوا يأتون إلى المقهى ولا يجدون طاولات فارغة، كانوا يقومون بتقديم العروض المالية له لحجز الطاولة في المساء التالي، وهنا تنبه لوكاس لهذا الكنز الثمين وسال لعبه للمال الوفير الذي يأتي بلا أدنى خسارة، إلا خسارة الأنظمة وهذه مع مرور الوقت ومع تدفق الأموال لم تعد تعنيه كثيراً، ويمتاز لوكاس بدهاء كبير، حيث إنه ومن خلال ملاحظته للطريقة التي يتعامل بها المرافقون مع كبار القوم، والتي كانت تقوم على التقدير المبالغ فيه، فقد قام بتقليد الطريقة بكل أناقة وبدأ يعطي رواد المقهى من السعوديين وفق ما يشتهون من الاهتمام

المبالغ فيه، والمصطنع بإتقان، ما جعل له أهمية كبيرة ومنحه دخلاً مضاعفاً جعله يرسخ جهوده في الصيف لتوفير كل ما يريدون..

ولأن طمع المال لا يتوقف عند حد معين، ولكون لوكاس قد اقتنع بأن السعوديين سيدفعون مهما كانت الظروف، فقد وضع مؤخراً في المساء فقط نظاماً يقضي بدفع مبلغ معين كحد أدنى، فالشخص الواحد عليه أن يدفع سبعين يورو مقابل أي مشروب، إضافة إلى طبق من الحلوى التي يختارها الزبون، وما فوق ذلك يتحمله الزبون وفق تسعيرة خاصة جداً..! وهذا النظام العجيب مخصص فقط للسعوديين، فأى شخص يتمكن من الجلوس في هذا الوقت سيدفع وفق الأسعار المكتوبة في قائمة الطعام، لهذا يرفض العاملون في المقهى إحضار قائمة الطعام للزبائن السعوديين حتى لا يتنبه أحدهم إلى الأسعار، وحين يطلبها أحد من الزبائن يتحججون بأن المحل بصدد طباعة قائمة جديدة..!

اقتربت الساعة الآن من الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ولم يتبق كثير من الوقت قبل إقفال المقهى، ولكن السماء أعلنت قرار الإقفال في وقت مبكر عن العادة، حيث بدأت الأمطار تهطل تدريجياً حتى انفجرت السماء من دون توقف، تبعثرت الهيبة بشكل لافت، وبدت هناك مشكلة كبيرة في وصول المخمليين إلى سياراتهم وخاصة النساء، وفجأة تسلقت السيارات الرصيف لتلتصق بالمقهى فيما هرول السائقون يحملون المظلات لهم حتى يركبوا سياراتهم في مشهد درامي خطير انتهى به عرض المساء..!

فزغ عبدالله من المطر وخاف من البلل، بينما كان خالد أكثر السعداء بكرم السماء، وخرجا من المقهى تحت المطر، والتفت عبدالله إلى صديقه وقال: تعال نوقف تحت مظلة المحل لين يتوقف المطر..!

خالد: مستحيل، يا حبيبي لحظة المطر هي أجمل لحظات الحياة وتبيني أتركها، مستحيل، تبي توقف وقف مع نفسك..!

عبدالله: يا مجنون لو كان معنا المظلات كان مشينا بس الوضع كذا لا يمكن نمشي فيه..!

خالد: يا عبدالله لا تخاف من المطر، المطر رحمة، المطر حكاية حلوة تحكيها لنا الغيوم،
كيف تقول عنه كذا..!

عبدالله: ابييه، أقول تعال يا نزار قباني والله ما أمشي بها الجو لو تموت..!

خالد: طيب ليه ما ركبت مع ها السيارات اللي سبحت على الرصيف يا الأمير؟!

تجاهل عبدالله سخرية خالد وهرول حتى توقف تحت مظلة المحل واضطر خالد أن يتبعه،
وحينما وصلا تحت المظلة ضحك خالد بصوت عالٍ على منظر صديقه وقال: تصدق صاير
كنك قطو طايح بيانيو!

هذا التشبيه المفاجئ أضحك عبدالله برغم غضبه من صديقه، لهذا تغيّر مسار الحديث في
لحظة انتظار هدوء المطر إلى نقاش ما حدث في المقهى..

عبدالله: وش رأيك باللي شفت الليلة..؟!

خالد: يخرب بيتهم يا شيخ، قسم بالله حتى كتاب السينما ما يخطر فبالهم ها المشاهد،
بذخ، خبال، استعراض، جرأة، وش أقول وش أخلي يا ساتر..! لكن أكثر شي قهرني أنني
كنت مثل الطالب اللي جالس عند مدرس شرس لو تلتفت ذبحك..! وش هذا يا عبدالله
لعلمك هذي آخر جلسة لنا بها السجن اغتثيت من جد..!

عبدالله: وين ما تروح بها الشارع مالك إلا مثل ها المشاهد وأكثر.. يعني درب عمرك، بكرة
تتعود وتدمن، إلا إذا إنك ما تبي تلقى أميرتك لولو..؟!

خالد: وش دخل لولو بها المشاهد..؟!

عبدالله: أنت ما تقول أنها سعودية، خلاص أكيد بتكون في واحد من ها المقاهي وأنا أبي
أدور بك كل ليلة في مقهى لين تلقاها..؟!

خالد: معقول تكون لولوة مثل ها الناس، لا مستحيل؟!!

عبدالله: والله إذا أنت تقول مستحيل مع أي ماني مقتنع فتأكد بأنك ما راح تصادفها أبدا!

كلام عبدالله الأخير أوقع خالد في حيرة كبيرة، فهي إذا لم تكن تأتي إلى الشانز فهذا يعني أنه بالفعل لن يراها وستظل أحلامه معلقة بوهم كبير، وأما إذا كانت من رواد الشارع وتمارس نفس الطقوس التي شاهدها هذا المساء فهي بكل تأكيد خيبة كبيرة لقلب خالد ولنظراته التي تقول له إن هذه الفتاة مختلفة عن غيرها..!

هدأ المطر كعادته في باريس بعد جولة ساخنة وسريعة، وتحول إلى هتان ناعم، وبدأ الطقس يبرد بشكل كبير، لكن ذلك لم يكن يحول دون أن يسير الصديقان بهدوء في طريقهما إلى الفندق، وهما مستمتعين برذاذ لم يزرهما منذ مدة طويلة جداً..

تذكر خالد أمراً كان يشغل باله حينما كانا في المقهى، والتفت إلى الخبير يسأله: عبدالله لاحظت شي غريب في المقهى، لاحظت أن تواجد الخليجين معدوم تماماً، أقصد غير السعوديين..؟!!

عبدالله: والله ملاحظتك في محلها، بس غيابهم منطقي، فالأجواء اللي تشوفها في المقهى ما تناسبهم أبداً، ولا يقدرن يجارونها، وباريس بشكل عام انعرفت من زمان أنها للسعوديين وأكثر الخليجين تلقاهم في لندن، ومع ذلك فيه منهم ها الأيام هنا بس من كثر السعوديين ضاعوا بينهم!

تسامر الصديقان في الطريق إلى الفندق دونما ملل، وحين وصلا قال عبدالله لخالد: اسمع يا حبيبي، أنا لي يومين ما نمت، أبي أنام ولا تصحيني لو أقعد أسبوع، أنت إذا قمت من النوم رح لأي مقهى وأرسل لي رسالة قل لي وين أنت، وأنا متى ما قمت أجيك، مفهوم يا العاشق..!

خالد: أحسن خبر سمعته منك، ترى نوم الظالم عبادة..!

ضحكا وهما يلوحان لبعضهما البعض وذهب كل واحد في طريقه إلى غرفته..

- 7 -

في اليوم التالي استيقظ خالد في موعده نفسه، وخرج تاركاً صديقه ينام كما يريد، وسار في الشوارع بلا هدى، حتى أخذته قدماه إلى مقهى يدعى «le berkeley» في شارع فرعي من شوارع الشانزليه، يحمل اسم المقهى نفسه.. كان المقهى خالياً من السعوديين تماماً، وهذا ما منح خالداً راحة كبيرة، فما شاهدته ليلة البارحة في المقاهي أُرعبه وبعثر هدوءه المعتاد، وعصف بتأملاته الجميلة وجعله مثل حراس الأمن كل اهتماماته المراقبة..

كان الجو ساحراً في هذا المقهى، وتحفه أشجار «الدلبا» أو ما تسمى بالفرنسية «platane» وهي أشجار معمرة تنتشر في جميع شوارع باريس، وسبب زراعتها هو تناسبها مع أجواء باريس المتغيرة، ولكونها متساقطة الأوراق ما يجعلها تعكس حالة الفصول الأربعة بشكل جمالي مذهل، هذا غير أنها تعد من بنات أفكار خبراء الحدائق الملكية، فأشجار الشانز بالتحديد أعيدت زراعتها في عام 1667م بتوجيه من قبل الخبير في الحدائق الملكية لونوتر الذي أمر أيضاً بزراعتها على صفيين متوازيين..

وبسبب ما يشاهده خالد في هذه الجلسة فقد اشتعل الحنين في قلبه كثيراً إلى لولة، وصار يزداد حنينه أكثر كلما شاهد الثنائيات العاشقة التي تملأ الأماكن التي يمر بها.. وفي أثناء هذه المشاعر هبطت فوق طاولته ورقة ذابلة سقطت من إحدى الأشجار المعمرة التي تحيط به، فقد كان خالد يعتقد دائماً أن الخريف هو الفصل الوحيد الذي يشعل الحنين في كل شيء، فالطيور لا تهاجر إلا في الخريف، والمطر يستلذ بالتساقط في الخريف، والمقاهي لا تتجمل إلا في الخريف، ثم إن تساقط أوراق الأشجار يعده نوعاً من هذا الحنين؛ لأن السقوط ليس سوى حنين من الأوراق للموت، وحنين من الأشجار للتعري

واستقبال الشتاء، لهذا ومن دون أن يشعر طاف بسمعه صوت فيروز الذي يعده أيضاً من
محفظات الحنين وغدت تغني في سمعه بأعلى صوتها..

* ورقو الأصفر شهر أيلول

تحت الشبايبك..

ذكرني وورقو ذهب مشغول

ذكرني فيك..!

رجع أيلول وأنت بعيد

بغيمي حزيني قمرها وحيد

بيصير يبكي شتي أيلول

ويفيقني عليك يا حبيبي

ليالي شتي أيلول بتشبه عينيك

يا ريت الريح إذا أنتا نسيت

حبيبي أول الخريف وما جيت

ينساها الحور وقمرها يغيب

وليلا يطول..

ونبقى حبيبي غريبي وغريب

أنا وأيلول..!

* من أغنية فيروز «ورقو الأصفر» لجوزيف حرب.

- 8 -

ولأن الحنين يتطاير في سماء باريس مثلما تتطاير أوراق الأشجار، فقد كان الحنين يستقر أيضاً في فندق الفورسيزون، حيث بدأ يمارس هواياته مع قلب آخر تذيبه الكلمات وتشعله الذكريات، لهذا بدأ يحفر في مشاعر لولوة بلا رحمة حتى جعلها تتجرأ لأفعال لم تكن تجرؤ عليها في حياتها ومن أهمها نقاش والدها في قراراته الصارمة..

فبعد نفاذ الفرص المتاحة للعثور على خالد في جميع الأماكن التي تجولت بها مع شقيقتها، لم يعد أمامها من خيارات سوى الحصول على موافقة عليا للتجول في مقاهي الشانزلييه كحل أخير قبل أن توأد أحلامها وتموت حكايتها في المهدي، ومن فرط حماسها فقد تجاوزت فكرة الحديث مع والدتها للتمهيد حول الأمر، واتخذت قراراً حربياً بمواجهة والدها بشكل مباشر ومحاولة إقناعه بأي طريقة كانت بشكل لا تجعله يشك في نواياها..

أبلغت أختها مشاعل بنيتها فوافقتها، بعد أن حذرتها بعدم الجدل وذكرتها بأن الإصرار سيغضب والدها وقد يتخذ قراراً أصعب من القرار الأول..

وبعد أن اتفقتا على الطريقة دلفتا إلى جناح والديهما، وبدأ الجميع في تبادل الأحاديث العامة عن باريس وتاريخها وجمالها وسحرها حتى وصل الأمر إلى جادة الشانزلييه، وهنا استعدت لولوة لبدء المحادثات الصعبة.. فقالت: طال عمرك والله كان ودي نتمشى بالشارع لو ربع ساعة لأن الشانز يظل أهم وأعظم شارع بالعالم لتاريخه ونوعية محلاته ومبانيه وخسارة نكون في باريس ولا نزوره ولو مرة..!

الوالد بتعجب من جرأة ابنته الرزينة، لكنه بتعقل وبصرامة قال: أنت تعرفين قراري عن ها الموضوع ولا جدال فيه..!

لولوة: لا طال عمرك لا يمكن نجادلك بس أبي أفهم سبب القرار..!؟

الوالد: يا بنتي الشارع جميل وفيه كل اللي قلتي، لكن للأسف صار تجمع وتعارف وقصص ما لنا فيها، أنا ما أقول شي بالناس اللي يجلسون لكن طريقتهم ما تناسبني وبالتالي ما تناسب عائلتي..!

لولوة: أنت قصدك الله يحفظك الجلسة فيه بس، وإلا حتى التسوق ممنوع، لأن بصراحة محلاته تختلف عن كل المحلات في العالم..!؟

الوالد: كل شي..!

قالها بصرامة تامة ما جعل لولوة تفهم الرسالة وتدرک أنها تناقش شخصاً لا يمكن مناقشته أكثر مما يجب، خصوصاً في موضوع غير مهم مثل هذا الموضوع الذي لا يعد موضوعاً يحتمل الحياة أو الموت، مع أنه يحتمل الحياة أو الموت لمشاعرها، لكنه ليس كذلك عند والدها، وعليه فقد انسحبت بهدوء ومن دون أن تشعره بأنها غير راضية على ذلك فيما شعرت هي بدم حار يتسرب في فؤادها وكأن شرياناً قد انفجر فجأة..!

- 9 -

ظل خالد هائماً مع خيالاته في المقهى بين برودة أيلول وشغب أوراق الأشجار التي تجمعت بالقرب منه وكأنها تلاعبه مثل طفل أفرحه من يهتم به، كان المقهى بارداً جداً لكن أكواب القهوة الساخنة ومشاعره الملتهبة تتلبسه مثل معطف دافئ، وبدأ في هذه اللحظة،

وأول مرة، منذ أن صادف لولوَة يحدث نفسه عن مصير هذه الحكاية، وماذا سيفعل، وماذا
يجب عليه أن يقرر..!؟

وكلما أوغل في القرارات كان يصل إلى قناعة تامة إلى أن نسيان هذا الملاك أمر مرفوض تماماً، وعاهد نفسه على المقاتلة حتى يعثر عليها..!

في حديثه مع نفسه كان خالد متأكداً من أن البحث عنها ليس منطقياً فهو قد منحها رقم هاتفه، ولكونها لم تنصل فهذا يعني أن الفكرة بالغالب لم ترتق في مشاعرها إلى ما ارتقت إليه في مشاعره، وحين يتذكر أنها لم تطلب رقم هاتفه، وأنه هو من بادر، يزداد قناعة أن المشكلة تكمن فيه هو، وليست فيها، ولكن لأن العاشق يرفض حديث المنطق والعقل فقد كان يتجاهل كل هذه الدلائل ويتمسك بافتراض أقرب للخطأ أكثر منه الصواب، وهو افتراض ضياع الرقم، أو أنها تعرضت لعارض كبير، وبناءً على ذلك فقد رأى أن عليه دور، على الأقل في البحث عنها ومشاهدتها والسماع منها مباشرة سبب عدم تواصلها، ورغم كل ما حدث بينهما من مشاعر بدت واضحة، ثم بعد ذلك يقرر المصير، وقد كان لحديث العاشق الأمريكي دور كبير في تمسكه بلولة وتمسكه بهذا الرأي، ولكن المشكلة التي لم يجد لها بوادر حل هي أين سيجدها في هذا البحر الكبير..؟!

عاش خالد صراعات القرار، ولكنه اقتنع بالبحث عنها مهما كلف الأمر، فليس من السهولة في مجتمع سعودي له خصوصيته المختلفة في الحياة أن يعثر على فتاة تقنعه شكلاً ومضموناً وتملاً مشاعره بعذوبة كهذه العذوبة، ثم يتركها تطير من بين يديه من دون أن يبذل لأجلها أي مجهود، وهو كثيراً ما كان يكرر عند أصدقائه أن مشكلة الشباب السعودي أنهم يتزوجون بأعين أمهاتهم وأخواتهم، كان خالد يتمرد على فكرة الزواج بهذه الطريقة، ليس من باب المثالية المصطنعة، ولكن من باب الحياة الحقيقية التي ينشدها هو، وتقبلها الطبيعة البشرية.

ففي السعودية بالتحديد، وللعادات الصارمة في الحياة العامة وبقاء النساء مع النساء، والرجال مع الرجال، والعزل التام، أصبحت مسألة الزواجات مسألة معقدة جداً، حيث تقوم الأم، أو الأخت، بالبحث عن الفتاة المناسبة زوجة لابنها، وفق رؤيتها هي، لا وفق رؤيته هو، سواءً في الشكل، أو في المضمون، وبعد وضع كثير من المستلزمات التي تعني عائلة الشاب

أكثر منه يتم التقدم لطلب من وقع عليها الاختيار ويتم الزواج.. وفي معظم الحالات لا يشاهد الشاب من يريد الاقتران بها إلا بعد كتابة عقد الزواج، فحتى «النظرة الشرعية» هناك من يرفضها، وبسرعة كبيرة يتم الزواج من دون منح الزوجين فرصة كافية لفهم بعضهما بعضاً.

وبسبب هذه الطبيعة تزايد عدد حالات الطلاق إلى أرقام مخيفة غدت في الآونة الأخيرة قضية رأي عام، وإن كان للطلاق أسباب أخرى ومتنوعة إلا أن هذا السبب يعد من أهمها، ولهذا يرفض خالد الزواج عبر الأهل، ولهذا أيضاً هو يتعلق عاطفياً وعقلياً بلولة، فهو في النهاية كما يردد بينه وبين نفسه لم يقابلها بملهى ليلي، ولم يخطط لأجل ذلك، وبما أن القدر لا يمكن اختياره فمن غير العدل أن لا يقبل خالد بهذا القدر الذي جاء متوافقاً مع كل ما يحلم به..!

- 10 -

كانت لولوة تجلس مع أختها مشاعل بغرفتها حزينة لضياع الفرصة الأخيرة التي كانت قد توصلها إلى خالد، لكن رفض والدها الصارم بدد أحلامها، وهي في قرارة نفسها لا يمكن أن تخالف رأي والدها تحت أي سبب..

كان من الممكن في أثناء خروجها المستمر مع أختها أن تغامر وتذهب إلى الشارع من دون أن يدري والدها، ولكنها لن تفعل ذلك حتى لو فقدت خالدها إلى الأبد، لهذا هي حزينة جداً بين هذه المعطيات التي لم يكن أحدها يصب في مصلحتها..

نظرت إلى شقيقتها مشاعل وقالت: وش الحل يا شوشو، أنا ما عاد عندي عقل يفكر..؟!

مشاعل: ما في حل يا عيوني إلا أنك تنسين خالد وتستسلمين للأبد، يا لولو، والله أنا متعاطفة معك لكن ما عاد باقي حل، والحين أنك تقعدين تفكرين بالمستحيل وتدورين عليه هذا شي ما هو صح، وبعدين أنت يا المفهية فيه أحد يضيع ورقة بها البساطة، خلاص تعوضني الله، ربي يجيب لك اللي أطلق منه..

كل ما قالتها مشاعل يبدو أنه لم يمر بسمع لولو، فبمجرد أن قالت لها «ما في حل» وهي تهيم بين أفكارها فيما لم تعد تشعر أنها تجلس معها..

ولأن لباريس سحر يعصف بكل الواقع فقد رن جرس هاتف غرفة لولو، ما أفزع الأختين عن من يتصل بهاتفها الآن..؟!

تبادلنا نظرات الاستغراب ثم تكفلت مشاعل بالرد حيث قفزت من السرير بسرعة ورشاقة إلى الهاتف ورفعت السماعة، وإذا بصوت والدها ينساب برزائته المعهودة، أهلين مشاعل..

مشاعل برعب: هلا طال عمرك..

الوالد: أعطيني لولو..!!

وضعت مشاعل يدها على السماعة ونادت أختها بهمس وحماس واستغراب: تعالي بسرعة أبوي يبيك..؟!

فزعت لولو وقفزت إلى الهاتف، وفي أجزاء الثواني جاب عقلها كل شيء قد يكون سبباً لهذه المكالمة، وأصيبت بخوف حينما تذكرت أنها قد ناقشته بمسألة الذهاب إلى شارع الشانزلييه وتوقعت أمراً مخيفاً ولكن ما تدري ما هو..!

خطفت سماعة الهاتف: سم طال عمرك..

الوالد: يا بنتي أنا أقدر تفكيرك واحترامك لقراراتي، وقبل شوي كنت تطلبين تروحين مع أختك للشانز عشان التسوق، وأنا يعز علي ما أحقق لك شي، رغم إنني أشوف اللي ما

تشوفينه، وتدارست الموضوع مع والدتك، وها الحين ما فيه مانع تروحين الليلة مع أختك وأمك للتسوق فقط، بس بشرط ما تتأخرون ولا تفكرون بالروحة من جديد..!

جاءت كلمات والد لولو مثل المستحيل الذي يصبح واقعاً، لم تصدق ما كانت تسمع، وارتسمت ابتسامة عريضة على شفاهها، وبدأت ترقص وهي ممكسة بالسماعة فيما مشاعل بدت كالخرساء تحاول أن تستفهم ما يحدث بالإشارات..!

لولو: الله يطوّل لنا بعمرك، ألف شكر ربي يحفظك ويخليك لي يا أغلى أب في الدنيا.

الوالد: مع السلامة، ثم يقفل السماعة من دون انتظار الرد..

بدأت لولو تصرخ وترقص في الغرفة ومشاعل ترقص معها وهي تردد: وش قال لك أبوي، علميني بسرعة..!

- 11 -

عند آخر النهار وصل عبدالله إلى المقهى وقد بدأ متورماً من كثرة النوم، جلس بجانب صديقه المهموم وبدأ يتلفت يميناً وشمالاً بطريقة توحى بأنه يستكشف المكان..

خالد: وش فيك، كن المقهى ما هو عاجبك..؟!

عبدالله: ما هي قصة ما هو عاجبني، لكن ها الحين تترك كل مقاهي الشانز المليانة بالمُزّز وتجي بها المكان الميت..!

خالد: بالله عاد تسمي مقاهي الشانز مقاهي، يا أخي أنا ما صدقت أخلص دراسة وما صدقت اترك مجالسنا الرسمية تجي تخليني أعيش كني بمدرسة وإلا بعزيمة رسمية ما

تقدر حتى تتنفس..؟! شف جمال السياح اللي يقدرن الحياة، كل واحد لاهي بوناسته ما هو مثل ربعنا ما غير يتمقلون بوجيه بعض..!

عبدالله: الله يعينا عليك أنت وأفكارك يا الفرنسي، خربك علينا فرانك حسبي الله عليه، تدري أنت ما يصلح لك إلا السان جيرمان والحي اللاتيني، أماكن قديمة وما تلقى فيها إلا ها النوعية من السياح، يعني نادر ما تشوف سعودي، اليوم أوريك المكان بس هاه ما هو تمتحنا كل يوم وحننا هناك، اليوم بس..!!

خالد: قم يا الله مشينا، خل نأخذ تاكسي من هنا..

عبدالله: يا أخي وحدة وحدة، خلنا نتمشى بالشانز شوي عشان أضحك لك، وإذا وصلنا محطة التاكسي القريبة من الفوكيت نأخذ تاكسي..

خالد - بتذمر -: يا حبك للمماطل، يا الله قم بس، خلصنا..!

كانت لولو تستعد للخروج إلى الشانزليه بسرعة كبيرة، ولقرب الفندق الذي تقطنه فقد رافقت والدتها وأختها مشاعل مشياً للشارع، كانت الفرحة مثل عصفور منتش بيوم ماطر، عصفور يحوم فوق رأسها ويلاعبها، وفي قلبها حفلة موسيقية فاخرة، حينما بدأت تمشي كان بודהا أن تطير حتى لا تضيع لحظة واحدة من فرصة البحث عن حبيب مفقود وليس له عناوين..!

وبرغم هذا فقد إلا أنها كانت تتيقن أنها ستجده يوماً ما، وكان لديها إحساس كبير بأن تعثر عليه في هذه الرحلة التي ولدت من رحم المعجزات..!

عبرت لولو ومن معها شارع جورج سانك حتى وصلوا إلى مقهى الفوكيت على ناصية جادة الشانزليه، ومن دون أن يتوقفوا نظرت لولو إلى مشاعل ثم اقتربت منها وقالت بهمس: ها الحين وش الخطة، يعني كيف أبي أقعد أطالع بالجالسين بالمقاهي كني عميل مخبرات..!

مشاعل: عميل المخابرات يا العاشقة يطالع بكل الناس ومحد يدري عنه، أنت عميل فاشل، لكن شوفي، إذا مريتني بأي مقهى هدي مشيتك، وطالعي بحذر، بعدين أنت تشوفين أمي، مشيها على قدها يعني فرصة أنك تأخذين وقت كافي تناظرين وتعطين خالد فرصة يشوفك إذا هو جالس، لأن الجالس يشوف أحسن من اللي يمشي..!

أعجبت لولو بهذا السيناريو، وبدأت تتهادى من أمام مقهى الفوكيت الشهير المكتظ بالناس وبالسعوديين على وجه الخصوص، جالت بنظرها على الجالسين ولكنها لم تلمح ما يشعرها أن خالدًا من بينهم، ثم واصلت المسير، وحين تجاوزت المقهى كان خالد وعبدالله يقفان عند محطة التاكسي المقابلة للفوكيت..

كانت هناك أمتار محدودة تفصل بين خالد ولولو، وكانت لولو على وشك أن تلمحه، بل إنها لو اقتربت قليلاً لربما شم خالد عطرها الذي لا يمكن أن ينساه، ولكن أختها وقبل أن تقترب منه نادتها مشيرة إلى محل «lacoste» القريب من المقهى فالتفتت ناحيتها في اللحظة نفسها التي توقفت بها سيارة الأجرة بجانب خالد وعبدالله ثم أقلتها إلى السان جيرمان..!

أمضت لولو وقتها في الشارع مثل الطفل الذي يبحث عن أمه، كانت تضطر للتوقف في المحلات وتشتري بعض الأشياء التي لا تريدها حتى تقنع والديها بأنها تتسوق، لم تترك مقهى أو مطعمًا إلا وقد مرت به، وفي عينيها صورة لم تتطابق مع كل الوجوه العابرة، وبرغم برودة طقس أيلول إلا أن حبات من العرق قد تكورت فوق جبينها مثل حبات المطر فوق جبين ورقة شجر شابة..

لم تفلح كل محاولات لولو الحثيثة في العثور على خالدها، وانعكست الخيبة على خطواتها المثقلة، ما جعل مشاعل تشفق عليها كثيراً هذه المرة، فصحيح أن خالدًا قد لا يكون في الشارع في هذا الوقت من باب المصادفة مثلاً، ولكن عملية العودة إلى الشارع مجدداً أمر أكثر من المستحيل، وهذا ما جعل مشاعل تشفق على أختها، ولم تعد قادرة على إبداء الآراء والأفكار تجاه هذا الأمر، ولكنها منحت نفسها وقتاً لتحكم أن خالدًا غير موجود

الآن في أي من مقاهي هذا الشارع، حيث التفتت لشقيقتها وقالت: اسمعي يا لولو للحين باقي عندنا وقت وبنحاول نقنع الوالدة أنها لازم ترتاح من المشي ونجلس في مقهى بمنتصف الشانز وبجهة الفنادق يمكن ربي يجيبه..!

- 12 -

في الطريق إلى سان جيرمان كانت سيارة الأجرة المنهكة من كثرة الركض وطول خدمتها تلهث وهي تقل خالداً وعبدالله، في رحلة بين شوارع باريس، تلك الشوارع التي لا تشبه غيرها من شوارع المدائن الأخرى، الطراز المعماري الذي تتسم به المباني يحكي أن التاريخ الذي نطق هنا لم يمر يوماً ببلاد الصحراء، فخامة عريقة منذ مئات السنين، تقف شامخة مثل جبل صلد، وتحفها أشجار الدلبا المعمرة في مشهد لا يخطر ببال رسام ماهر..

أقبل الصديقان للسان جيرمان، وبدت المباني وكأنها أكبر سناً من تلك التي مرا بها، مبانٍ بنيت بحجارة طبيعية على أطرافها بقايا من حكايات السنين، وملح يرسم وجهها الملمهم، وآثار مطر، وكثير من الحنين..

حين وصلا إلى قلب السان جيرمان خفق قلب خالد كثيراً، فالمكان ينطق بكل لغات العالم، شعر بأن هناك سحراً يجذبه منذ الوهلة الأولى، ولكنه لم يكن قادراً على تحديد هويته، وأكثر ما لفت انتباهه بعد جولة قصيرة كثرة المقاهي المنتشرة في كل زاوية من زوايا هذا الحي العتيق، وكذلك ضيق الشوارع التي تؤكد أن هذه الطرقات صممت خصيصاً لعربات الخيل وللمشاة على وجه التحديد..

سرح خالد بفكره وبدأ يستنشق هواءً لم يسبق له أن استنشقه، عبق معطر كرائحة الخشب العتيق، أو ربما كرائحة عود من القرفة، ونسي أنه برفقة صديقه، ما جعل عبدالله يمسك به من كتفه ليقول: هيبه، كك سكرت..؟!!

خالد بعد أن أيقظه صوت عبدالله المزعج: أي والله أني سكرت، يا الله يا عبدالله، وش ها الجمال، وش ها التاريخ، وش ها السحر، يا أخي هذي هي الأماكن اللي الواحد لازم يقضي وقته فيها، شف بالله ها الناس من كل جنسية، شف كيف مبسوطين، وكيف عايشين، ما هم مثل ربعك اللي غثيتنا فيهم في الشانز..!

عبدالله: عز الله اللي راحت فيها سفرتنا..! اسمع يا بعد قلبي، حنا بنجلس هنا للساعة 11 بعدين نرجع لشارعنا، وأنسى إنك تفكر ترجعنا مرة ثانية، ترى أنا قلت لك من البداية لا تمتحن أمي بها الأماكن اللي تغث..!

خالد: صحيح إنك نشبهه، يا أخي أنا ماني مثالي، ويمكن بعد اللي أسويه ما هو صح، بس أتحداك تقنعني أن جلسات مقاهي الشانزليه هي الصح، لعنوا إبليسك أمس مثل اليوم ومثل بكرة، لكن تعال خلنا نتفق عشان نرضي احتياجاتنا، في النهار نجبي هنا ولمثل ها الأماكن، وبالليل نقعد بالسينما السعودية حقتك، وهذا هو العدل..!؟

عبدالله: والله لا هو عدل ولا شي، لكن الشكوى لله اتفقنا..!

جال الصديقان في الأزقة والممرات العتيقة، وكلما وصلا إلى مقهى عرض عبدالله على خالد الجلوس لكن خالد كان يرفض، فهو لا يزال في مرحلة التعرف إلى خبايا المكان..

كان العرب المهاجرون يملؤون الشوارع، وينتشرون في المطاعم العربية المتناثرة بكثرة، حيث من الملاحظ في شوارع السان جيرمان والسان ميشيل «الحي اللاتيني» وجود مطاعم الشاورما والساندويتشات العربية بشكل كبير، وكان عبدالله يحذر صديقه من الاحتكاك بهم، فقد سجل التاريخ أن بعضاً منهم يستهدف السعوديين بالتحديد وبقيّة السائحين بشكل عام لسرقتهم، وما يساعدهم على هذا الفعل هو أن معظمهم مهاجرون غير شرعيين، لهذا هم بلا أوراق أو إثباتات تدينهم وهذه تعد مشكلة من أهم المشكلات التي تعانيها فرنسا..

ولكن هذه التنبيهات لم تجد قبولاً عند خالد، فهو حالم لدرجة تجعله لا يهتم بمثل هذه الأمور، مع حذره الشديد، ولكن قد يكون توقيت التحذير ليس مناسباً، فخالد سيتوقع أن يقوم صديقه الهائم بشارع الشانزلزيه بوضع أسباب تجعله يعيد النظر في اتفاقهما، لهذا لم يعر انتباهاً لتحذيرات صديقه..!

- 13 -

في منتصف الشانزلزيه توقفت لولو ومشاغل ووالدتهما الآن عند مقهى الماريوت، كما خططت لذلك مشاعل، بعد أن أقنعت والدتها، كان المقهى مزدحماً كالعادة ولا توجد طاولة فارغة في هذه اللحظة، فمقهى ماريوت بالتحديد هو من المقاهي المشهورة بقلة عدد الطاولات فيها، وهو تابع للفندق نفسه المقابل له، وبسبب ثقافة الحجوزات فمن المستحيل أن تجد طاولة فارغة إلا بمعجزة؛ لأن نزلاء الفندق المخمليين غالبيتهم من السعوديين، ويتفقون سلفاً مع المقهى لحجز الطاولات، ولمنع الإحراج يأتي في مثل هذه الأوقات أحد المرافقين للشخصيات ثم يجلس على طاولة ويحجز الكراسي حتى يأتي سيده..

حاولت مشاعل أن تحصل على طاولة بكل الوسائل ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل، وحين قررت البحث عن مقهى آخر ناداها النادل بعد أن تبرعت سيدة أوروبية بترك طاولتها تقديراً لهذه العائلة، وذلك بعد أن تناولت قهوتها..!

كان المقهى يعج بالسعوديين ومن جميع الأعمار، جلست لولو بجانب أختها بمكان يسمح لهما برؤية العابرين، فيما جلست الأم في الكرسي المقابل، وبمجرد جلوسهن دارت رؤوس ممن يشاركونهن المقهى تجاه طاولتهن، وبدأ الهمس، فالوجه غريبة على الموجودين، والرزانة الممزوجة بجمال مذهل ولا يتكرر كثيراً جعلهن هدفاً لنظرات الشباب والفتيات على حد سواء، فيما كبار السن بدأوا يرمقونهن بفضول..!

أدى هذا الهجوم المتواصل إلى إرباك الأم التي لاحظت النظرات، ما تسبب لها من إزعاج، وأحست بأنها وافقت على قرار خاطئ، وأدركت سبب تعند زوجها لذهاب بناته إلى هذا الشارع بالتحديد، وهنا أشارت على مشاعل طالبة منها أن تستعجل بالطلب لأجل المغادرة؛ لأنها غير مرتاحة في هذا المكان..!

شعرت الفتاتان بما شعرت به الأم واحترام قرار والدهما، خصوصاً فيما تلا ذلك من وقت حينما بدأ الشباب بمضايقتهن بالتلميح والتلويح، ولكن لولوة تناست كل ما يجري حولها وركزت نظرها جيّداً في كل عابر عليها تعثر على خالد، ثم حين تجده ستقسم أغلظ الأيمان بأنها لن تعود مجدداً إلى هذا الشارع، ولكن لم تكن كل الوجوه العابرة تحمل خالداً ولا حتى شبيهه خالد!

- 14 -

في السان جيرمان كان عبدالله يتذمر من كثر المشي في أماكن لا يعشقها ولا تستهويه، بينما خالد يصر على أن يواصل جولته ليكتشف الجمال، وفي أحد الشوارع توقف خالد فجأة بعد أن لمح باباً من قضبان الحديد يشبه إلى حد كبير أبواب الحدائق، يعلوه قوس من الحجر المصنوف بمهارة، خلف الباب ممر غير عريض كأنه يؤدي إلى حارة..

شعر خالد بجاذبية غير طبيعية تجاه هذا الباب وما بعده، وهنا التفت إلى عبدالله، وقبل أن ينطق فهم عبدالله ما ينوي عليه صديقه فقال: والله ما باقي إلا أننا ندخلها الخرابة..!!

خالد: اصبر بس، اعتبرها تمشية، خلنا ندخل ونشوف من باب الإطلاع!!

عبدالله: يرحم أمك أنا أختنق بالأماكن الضيقة، شف لنا أي مقهى خلنا نجلس نشم هواء، والله ما عاد باقي بي حيل.

يمسك خالد صديقه من يده ويسحبه وهو يقول: إمش يا الكسول، دقائق بس ونطلع.

عبر الصديقان من خلال الباب حيث استقبلهما ممر عتيق منحدر بشكل واضح ومرصوف من الحجارة الكبيرة القديمة، التي بدت ملساء جداً من كثرة عبور الأقدام فوقها منذ زمن بعيد، لكنها وبفضل التقادم امتلأت بالتشققات، لهذا من الطبيعي أن تجد النساء صعوبة في المشي فوقها، خصوصاً إذا كن يلبسن الأحذية ذات الكعوب العالية والمدببة..!

المكان ليس سوى حارة صغيرة جداً، على أطراف ممراتها الضيقة توجد محلات ومطاعم ومقاهٍ بمساحات صغيرة جداً، وتعلوها مباني قديمة جداً، في وجهها ألف حكاية وحكاية، وكل مباني باريس القديمة لا ترتفع البنايات أكثر من ثلاثة طوابق، ما يميّز النمط المعماري في هذا البلد الساحر، المكان يكتظ بالناس بشكل ملحوظ وخاصة من السائحين الذين يتأملون في تفاصيله بشغف، ويلتقطون داخله عشرات الصور التذكارية.

سحر غريب تغلغل في كل مشاعر خالد، وارتسمت على شفثيه ابتسامة المبهور، فكل ما وقع على ناظريه كان يناديه، ثمة صوت همس من بين أحجار المباني العتيقة التي زادت السنين جمالاً يرحب به، ما جعله يقف مذهولاً، وكأنه عثر على صندوق الكنز، كانت مشاعر خالد واضحة لدرجة أعاظت عبدالله فقال: هاه شفت كل شي، يا الله مشينا!

خالد: وين مشينا، تدري يا عبدالله أن ها المكان كنت أشوفه بخيالاتي.. أقسم لك بالله ما زرتة ولا قرية عنه لكن كنت أعرفه قبل أجيئه!

عبدالله: لا تجنني يا خالد وتسوي لي فيها الولد التاريخي، والله ماني شايف بها المكان اللي يستحق أنك تضيع دقيقة وحدة فيه، قم بس مشينا وخل عنا أحلامك!

خالد: طيب حنا ما اتفقنا قبل شوي نقسم الوقت، النهار لي والليل لك، أجل أنشبر وتعال نجلس وإلا ترى بخليك تقعد بشانزك لحالك!

استسلم عبدالله وهو يلوم نفسه كيف أتى بصديقه المهووس لمثل هذه الأماكن التي لا تعجبه أبداً، ولكنه أضر أن يسايره ليتجاوز هذا النهار ومن ثم سيجد حلاً لإلهاء خالد عن العودة مجدداً، وواصل جولتهما في المكان المحدود حتى وصلا إلى مقهى حالم يسكن زاوية صغيرة من الحارة ويقترب من باب آخر يشبه الباب الذي عبر الصديقان منه، وكان يؤدي إلى شارع خارجي واسع..

هنا قرر خالد أن يحتسي قهوة استثنائية بنكهة عبق الماضي في هذا المقهى التحفة، وزاد من حماسه للجلوس - كما كان يهمس لنفسه - أن المقهى وكامل المكان لم يتعرض للاحتلال السعودي، حيث لم يصادف في جولته هذه أي إنسان سعودي على الإطلاق؛ لهذا قرر الجلوس وأجبر صديقه على الجلوس معه..

المقهى يدعى «le relais odeon» له بابان، الباب الرئيس ككل المقاهي الباريسية يأخذ ناصية المبنى الخارجية ويطل على شارع «Bd saint-Germain» ويستقبل الزبائن من دون أن يعبروا إلى هذا المكان الساحر، أما الجهة الداخلية التي أدهشت خالداً فهي تمثل الباب الداخلي الذي يطل على الزقاق الصغير..

ومع إحساس خالد المجنون الذي استوقفه عنوة وأدخله في هذا المكان، إلا أنه لم يكن يدرك على الإطلاق أنه يدخل مكاناً يعد واحداً من أعظم الأماكن، بل ربما هو الأعظم في كل أوروبا!

فالمكان الذي دخله هو جادة قديمة يعود تاريخها إلى عام 1640م، وتدعى جادة سوق سانت أندري، وهي تنتمي لمنطقة «سانت أندري» بالسان جيرمان، وتعد هذه الجادة واحدة من ضمن عشرين جادة بقيت في فرنسا حتى عهدنا هذا، بكامل حلتها بعد أن أخفت السنين العشرات أو ربما المئات منها، وتعكس الجادة بتصميمها الجميل النمط المعماري المدهش الذي اشتهرت به فرنسا منذ القرن الخامس عشر..

عليه تعد جادة «سوق سانت أندري» واحدة من التحف المعمارية الباقية، وكانت الجادة شبه منغلقة على نفسها وبقيت كذلك حتى عام 1735م، إذ قام مهندس فرنسي يدعى فيليب أوغست بفتح باب على الشارع الخارجي، حيث بنى القوس الجميل الذي يعلو الباب، وبمجرد أن فعل ذلك كأنه أيقظ السحر في هذه الجادة العتيقة، فعلى مر السنين الطويلة التي مرت بهذا المكان الخصب، غدت الجادة ملتقى للبرجوازيين والشعراء والعشاق والفنانين والمهاجرين، وحتى طلاب الجامعات، حيث موقعها القريب من جامعة السوربون والمسارح والمطابع ودور الموسيقى ومدارس الرقص، جعلها مقراً دائماً لكل هؤلاء، وملتقى لأحلامهم ويومياتهم، وكانت تتزين للعشاق والشعراء على وجه التحديد في المساء وكأنها عروس تتزين في ليلة عرسها..

أما المقهى الذي اختاره إحساس خالد فقد افتتح في عام 1776م، وظل في هذا الموقع منذ ذلك التاريخ، لهذا من الطبيعي أن تجد ديكوراته لا تزال محافظة على هويتها الأصلية، برغم التعديلات التي تتناسب مع تغييرات الحياة، ومثله مثل المقاهي الجميلة الأخرى تركز فوق مدخله قبعة حمراء أو خميرية، ويتدلى من جنبات جدرانه عدد من القناديل التي تضيء على المكان ألماً رائعاً، وعلى جانب المقهى لوحة كتبت بالخط اليدوي القديم تحمل اسم المقهى، وتاريخ افتتاحه كنوع من الفخر وإبراز الجانب المذهل والحسن لهذا المكان الساحر..

المذهل حقاً الذي يؤكد سحر المكان وعمق إحساس خالد أن المبنى الذي يعلو المقهى الذي يحتسي فيه الصديقان قهوتهم كان شاهداً على ولادة الشاعر الفرنسي البلجيكي الأصل «mauwice careme» والملقب بأمبر الشعر، إذ ولد في المبنى نفسه في عام 1899م، وعاش لمدة مائة عام..

ولأن إحساس خالد العظيم كان أكبر من كل التوقعات فقد اختار بقلبه أن يتعلق بهذا المكان من دون أن يعرف البعد التاريخي والإرث الثقافي له، ولهذا لم تكن المفاجآت تتوقف عندما تم ذكره، فعلى بعد عشرين متراً من بوابة

الجادة التي تطل على شارع «Rue de l'Ancienne Comédie» يقبع أقدم مطعم ومقهى في تاريخ أوروبا واسمه «le porcople» الذي لا يزال يحافظ على الأكلات الفرنسية القديمة، التي تعد إرثاً جميلاً من تاريخ فرنسا، وأبرز هذه الأكلات هي طبق رأس العجل مع الخضار وشوربة البصل، ويعود تاريخ افتتاح المطعم إلى عام 1686م، لهذا من الطبيعي أن يكون قد مر به أشهر عظماء العالم في كل المجالات، لكن من الأشخاص الذين يفتخر بهم المكان ويعدونه أحد أهم الزبائن العظماء هو الأديب الفرنسي الشاعر فولتير، وغيره كثيرون..

وحين تتجول بداخله تلمس التاريخ من خلال الرسومات القديمة والكتب التاريخية وقائمة الطعام الأولى التي كتبت بخط اليد وبعضها بالآلات الكاتبة!..

كل هذا الجمال كان يحيط بخالد من دون أن يعلم، ولكنه دائماً ما يصدق إحساسه، لهذا تمسك بصوت ناداه من أعماقه فتوقف من دون أن يعلم لماذا، ثم دخل بوابة لا تشجع على الدخول خصوصاً مع حذره الواضح والمبالغ فيه أحياناً، ولكنه تلاقي المشاعر، أو تلاقي الأرواح..

استكان خالد فوق كرسيه وهو يتناول قهوته وقطعة من كيك «التراميسو» الفرنسي اللذيذ، كان يهيم في عالم جميل، وفي كل زاوية في هذا العالم الحالم كانت لولو تتشكل بوجهها البريء وضحكتها الساحرة أمام ناظريه، وتطير فوق أفكاره مثل فراشة رشيقة في صباح يوم ربيعي!

بينما كان عبدالله يجلس وهموم الكون تحوم فوق رأسه، فارق كبير بين الأحاسيس، وبين الرغبات، ولأنه كذلك فقد لزم الصمت تماماً منذ أن جلسا في المقهى، وظل كذلك حتى فاجأه خالد وقال بنشوة واضحة: تذكر يا عبدالله أغنية فيروز «طيري يا طيارة طيري»، تذكر يوم تغني «وينساني الزمان على سطح الجيران»، هذي هي أميتي الحين، ودي ينساني الزمان هنا بها المكان بالتحديد!

عبدالله من دون نفس: واضح يا فولتير!

خالد وهو يبتسم: من هو فولتير؟!

عبدالله بسخرية مقصودة: فولتير يا جاهل هو جار فيروز وصاحب البيت اللي تبي الزمان ينساها فوق سطحه!

ضحك خالد من أعماق قلبه على تدمر عبدالله الظاهر في تعليقه الساخر ومعه فهم أن صديقه قد وصل حد الملل من هذا المكان، وقرر أن يضحى باللحظة الجميلة لأجله فقال: شوف يا صديقي، الساعة الحين صارت عشرة، خلنا نطلع من هنا ندور مطعم نتعشى فيه ونروح للسينما حقتك!

عبدالله: ما بغينا، قالها وهو يقف مسرعاً ثم يمشي وكأنه سجين هارب..!

- 15 -

أمام محل «Gap» في الشانزليه كانت لولو مع والدتها تقفان في انتظار مشاعل التي تحججت لتشتري شيئاً ما من المحل نفسه، فيما طلبت منهما عدم الدخول لأنها لن تتأخر وكانت تقصد بهذا الإجراء أن تمنح أختها وقتاً إضافياً حتى آخر لحظة لعلها تتصادف مع خالد، ويمطر المستحيل عقداً من الياسمين!

تأملت لولو كما كانت تفعل منذ لحظة دخولها الشارع كل الوجوه، وركزت في الجالسين على طاوولات مقهى «uni sex» وهو المقهى نفسه الذي يقضي فيه خالد ليله برفقة صديقه، لكن لا أثر لخالد على الإطلاق، وفي هذه اللحظة بالتحديد من دون غيرها من لحظات الخيبة تأكدت بأن الله لا يريد لها أن تعثر على خالد، فضياع الورقة ثم عدم العثور عليه في أي مكان مع كل ركضها اليومي وإخلاصها في البحث يأخذها إلى أن خالداً ليس لها،

ولكنها مع هذا لن تستطيع إقناع قلبها الذي لم يتنفس الحب إلا مع خالد، وظلت هكذا تحاور نفسها من دون أن تصل إلى نتيجة حتى خرجت مشاعل ولمجرد أن لمحت وجه لولو أدركت بأن الغائب لم يعد..!

أمسكت لولو بيد والدتها وقالت: مشينا إلى الفندق..

مشاعل: مستحيل أن أمي تبي تمشي لين الفندق، خرينا نأخذ تاكسي من هنا..!

وافقت لولو، وعند الرصيف لوحث مشاعل لإحدى سيارات الأجرة، وركبوا باتجاه فندق الفورسيزون!

- 16 -

في شارع جورج سانك وبالقرب من فندق الفورسيزون كان خالد يجلس مع صديقه في سيارة الأجرة التي تقف هذه اللحظة عند إشارة المرور الحمراء.. بينما كانت لولو مع عائلتها في سيارة أخرى جاءت مقبلة باتجاههم، لكنها وفي نقطة ليست ببعيدة عنهم انحنت من أمام سيارة خالد باتجاه الفندق، لم يكن الضوء كافياً لأن يلمح أحدهم الآخر لكن خالد التفت إلى الفندق الذي يقف أمامه عدد كبير من السيارات الفارهة، وسأل عبدالله: وش ها المكان..؟!

عبدالله: هذا يا عمي فندق الفورسيزون حق الوليد بن طلال..!

خالد: تمزح..؟!

عبدالله: والله هو، هذا من أهم المقرات للشعب اللي تشوفه يستعرض في المقاهي، أنت ما تشوف السيارات، كل هذولا يستعدون عشان يروحون إلى السينما!

خالد: طيب السينما خطوتين، ليش يركبون سيارة..؟!

عبدالله: يا شين أسئلتك اللي مدري وش تبي؟! يا حبيبي كل هذا عشان الاستعراض، لازم توقف السيارات هذي بشكل معيّن، وينزلون اللي منها قدام المقاهي بعد ما تفتح لهم الأبواب، حتى يشوفونهم الناس وإلا وش الفايذة من السيارات إذا كانوا بيمشون ويخلونها، بعدين أنت نسيت موقف المطر؟!!

خالد: أنا لازم أزور الفندق، يا أخي أبي أشوفه عن قرب، أبي أشوف ها العالم وين تسكن!

عبدالله: أنت بس فكنا من السان جيرمان وأنا أروح معك وين ماتبي..!

تحرر عبدالله من كآبته التي لازمته في جولة النهار، وأصبح أكثر انطلاقاً وكأن الحياة قد دبت في أطرافه من جديد، بعد أن دخل في أجواء الشانزليه، وحين عبر الشارع طلب من السائق أن يقف في مكان خالٍ من المقاهي والمحلات ما أثار حفيظة خالد فسأله: أنت ما تبينا نروح لنفس المقهى..؟!

عبدالله: إلا طبعاً..

خالد: أجل ليش ما وقفنا عنده..؟!

عبدالله: ها الحين توك شايف ها السيارات العجيبة اللي تبي توقف عند المقهى وتبينا نجي ونوقف بهذا التاكسي حتى نصير فرجه للعالم!

خالد: الله يصبرني على ها الفكر بس! بعدين أنت ما قلت أنا بنجلس كل ليلة في مقهى، ليش نجي نفس المكان..؟!

عبدالله: لأن الوقت هذا مستحيل تلاقي فيه طاولة فاضية بأي مكان، وأنا ما أعرف سياسة المقاهي الثانية، وإذا نبي نغير لازم نروح بدري شوي لأي مقهى!

توجه الصديقان إلى مقر العرض الرسمي للفيلم «سعوديون في باريس»، وفي الطريق اعترضتهما فتاة صغيرة تحمل ورقة، ومن دون أن تستوقفهما ألقتهما عليهما السلام باللغة العربية الركيكة، ثم طلبت منهما باللغة الانجليزية أن يقرأ الورقة، كاد خالد أن يتوقف لكن عبدالله سحبه من يده وقال: لا ترد عليها ولا توقف عندها!

خالد: ليش خل نفهم وش السالفة؟!

عبدالله: السالفة أعرفها، هذي تدعي أنها من البوسنة وهي غجرية من غجر أوروبا تنتشر مع عائلتها في ها الشارع من سنين وتتسول من السياح خاصة السعوديين، وإذا شاغلوك يسرقونك، فما له داعي توقف عندهم وإذا فيك صدقات تصدق بديرتك!

واصل خالد وعبدالله السير إلى المقهى وحينما أقبلوا وجدا أن العرض قد بدأ مبكراً هذا المساء، فالسيارات التي تتوقف عند رصيف المقهى وعدد الحراس المنتشرين بالقرب من الطاولات يوحي بأن هناك وفوداً رفيعة المستوى ربما جاءت هذا اليوم!

أصاب المشهد العام عبدالله بالقلق، فكون الزحمة قد بدأت مبكراً فهذا يعني أن فرصة إيجاد طاولة مناسبة وفق السعر الذي يدفعه هو وصديقه ضئيلة جداً، لهذا توجه إلى مالكوس بسرعة، لكن مالكوس هذا المساء ليس كما هو الذي كان بالأمس، فالمدرّب المحترف يعيش أحداث مباراة ساخنة منذ الدقائق الأولى، فحجم الهجوم الذي يتلقاه أكبر من توقعاته، خصوصاً في مثل هذه الأيام بالتحديد!

سلم عبدالله على مالكوس ودس في يده المبلغ المعتاد، لم يرده ولكنه اعتذر منه بأنه لن يستطيع توفير طاولة مناسبة كالعادة، ولام عبدالله بسبب التأخير، وقال عليك أن تعرف منذ هذه الليلة أنك إذا أردت الجلوس في مكان جيد عليك أن تأتي مبكراً فكبار القوم

جاءوا هذا اليوم من مدينة «كان» ولا يمكن ألا أمنحهم مواقعهم المحببة، وأنت تعرف ذلك
يا عبدالله!

وافق عبدالله على ماض؛ لأنه يعرف أن هذا الكلام حقيقي، وأن مالكوس لا يمكن أن
يجلسه بهذا المبلغ في هذا الوقت الثمين لولا أنه يقدره، وعليه فقد انساق مع خياره
المتاح، ولكنه حينما جلس اكتشف أنه خيار جيّد، ففي صالات السينما كلما ابتعدت عن
الشاشة كانت الرؤية أفضل! لكن الشيء غير الجيّد في الموضوع أن النادل المخصص
لخدمة هذا الجزء من المقهى لم يكن أحد أصدقاء عبدالله، وهذه هي الميزة المهمة التي
سيفتقدها هذا المساء، ولكنه بالتالي قبل كل نتائج التأخير!

في جانب محدد كانت النادلة الرومانية الشقراء ساندا تبدو غير تلك الفتاة التي يعرفها
الجميع، ففي هذا المساء كانت مشعة مثل ألماسة ثمينة، تسريحة جديدة لشعرها الأشقر،
وفي ساعديها عدد من الإكسسوارات الرخيصة، لكنها في غاية الأناقة، واللافت أكثر أنها
تضع ماكياجاً خفيفاً ومرتباً على وجهها الطفولي، فيما كان أحمر الشفاه يلمع من شفثتها
الصغيرتين، حتى غدت مثل الأميرات الرومانيات الساحرات!

لفتت انتباه خالد، فالتفت إلى صديقه مستفهماً: عبدالله هذي ما هي خويتك اللي
البارح..؟!

التفت تجاهها عبدالله ثم قال: إلا هي، طبعاً يحق لها تكشخ، الوضع يحتاج كذا..!

كانت ساندا ترفض هذا الفكر جملة وتفصيلاً، ولكن كان لكلمات صديقها المسن فافلو مساء
البارحة تأثيراً كبيراً، فقد ظل ينبهها إلى أنها تعيش في فرصة تاريخية لن تتكرر إلا في هذه
الأسابيع المحدودة من السنة، وعليها أن تستغلها بالشكل الذي يمنحها المال، وحينما ذهبت
إلى منزلها بعد حديث البارحة، فكرت ملياً بحديث الخبير، وبعد صراعات اقتنعت أن
الفرص لا يمكن أن تتكرر بالفعل وقررت ركوب السفينة، وحيثما ستنقلها ستذهب معها،
وعلى قدر تمنعها القوي كان سقوطها أقوى، لهذا استيقظت مبكراً هذا النهار ومرت بصالون

تجميل حتى تتشكل بهذه الصورة الحسنة واللافتة..! وكان التغيير في المظهر أحد التنازلات التي قررت أن تمارسها الشقراء الأوروبية بلا تردد أو تأنيب ضمير!

- 17 -

في غرفة لولوة كان الصمت يغلف المكان منذ عودة العائلة من الرحلة الفاشلة، حزن لا يشبه حزن الأرض يتطاير فوق رأس العاشقة المكلومة، ولم يعد عند مشاعل من الكلام ما يجب أن يقال، فقد استنفدت كل الحيل، والخطط، والتخمينات، لأجل استعادة خالد المفقود، وبالتالي إشعال الفرحة في قلب أختها الحزينة!

دنت مشاعل من أختها وجلست بجانبها ثم قالت: يا حبيبتي والله ما بيدي شي أسويه عشانك، والله أول مرة أحس أني مثل المقيّدة، حتى الكلام ما عاد باقي عندي كلام، وش الرأي الحين؟!

لولوة تنهد بحرقة ثم تقول: والله يا ميشو أدري إني أشغلتك، وأزعجتك، وضيعت وقتك، وخربت إجازتك، واللي سويتيه معاي لا يمكن أني أنساه لك، لكن ها الحين أقدر أقول لك من ها اللحظة خلصت الحكاية، بعد اليوم أعلنت الهزيمة المطلقة وعن قناعة، صعب جداً أعاند القدر.. وأوعدك أني راح أنهي كل شي عن ها الموضوع، سبحان الله اللي صار لا يمكن يخطر فبالى أبداً.. والحمد لله على كل حال!

مشاعل: أنا يا لولو ما قصدت والله من كلامي أني أبيك تقولين ها الكلام، أنا كنت أبي أسمع رأيك، أو تعطيني فكرة ما جت فبالى حتى أساعدك، هذا بس كان قصدي، وأنا والله بكون معك لو لآخر الدنيا!

لولو تبتسم: أدري يا حياتي، والله أدري، وأنا بعد يوم إني حكيت ما قصدت شي غير إني أقول لك عن قناعاتي اللي وصلت لها، خالد يا ميشو كان حلم والأحلام، مو دايم تتحقق، الأحلام مثل الغيم يا كثر الغيم ويا قل المطر!

قالت لولو هذه الكلمات وهي متيقنة أنها لا تؤمن بها، ولكنها كانت تريد أن ترحم أختها الرائعة من هذا الجهد وهذا التفكير في قضية تعنيها هي، ولا تعني غيرها، ثم أرادت أن تحاول إقناع نفسها بأن الركض خلف السراب لا يخلف إلا الموتى!

ولكن الحقيقة التي اختبأت في صدرها هي أن الحب الذي فعل بها كل هذا التمرد، وأقام كل هذه الثورات في مشاعرها لا يستحق أن ينسى بهذه البساطة، خصوصاً أنها هي التي كانت السبب الرئيسي في ضياعه من دون أن تدري كيف! ومع إعلانها التنحي عن الركض الميداني في البحث عن خالد، إلا أنها قررت أن تعيشه في خيالها طوال العمر، وتركت مسألة المصير للأيام، فهي لم تقرر أن تعشق، ولم تقرر أن تضيع ورقة العشق، وبالتالي هي لن تقرر المصير، وستبقي بصيصاً من أمل علّ سحاب الأحلام الذي مر بها وسافر بحلمها من دون موافقتها أن يمطر ذات يوم!

- 18 -

في مقهى الـ «uni sex» كان العرض السينمائي مثيراً هذا المساء، فقد امتلأت الطاولات عن بكرة أبيها بالبشر، وجوه مألوفة من المخمليين تتخذ أماكنها في المقهى برفقة أعداد كبيرة من المرافقين الرسميين، وبجانب مالكوس يقف عدد كبير من المفاوضين الذين يعرضون المال الوفير له؛ لأجل الحصول على طاولة، فيما المكان لم يعد يحتمل أكثر، ولكن بريق المال جعل مالكوس يضرب بالأنظمة وبالمنطق عرض الحائط، فقام بجلب عدد من الطاولات والكراسي من داخل المقهى، ووزعها حتى ضاق ممر المشاة بازدياد عدد

الطاولات، ومن ثم عدد الناس في المقهى تسبب في غضب النادل المسن فافلو وهو الوحيد الذي يحق له التعبير عن غضبه، وسبب غضبه أن العدد الكبير من الزبائن يحتاج إلى عدد مضاعف من العاملين ولا يمكن - مهما اجتهد الجميع - أن يقوموا بخدمة كل هذا العدد!

كان اعتراض فافلو منطقياً ما جعل مالكوس يوعز لمساعديه بخدمة الزبائن وشاركهم هو بنفسه لأخذ طلبات الزبائن، فيما كان الضغط الأكبر على العاملين في المطبخ ولكن الطمع الكبير لا يعرف المنطق!

كان الصديقان يجلسان بين كوم من البشر، وكان العرض أكبر من قدرتهما على مراقبة كل شيء، ولكن ومع كثرة الناس إلا أن الجميع أصبحوا مثل خالد وعبدالله متأملين للصخب الكبير النابع من طاولات المخمليين..

على إحدى الطاولات البعيدة عن خالد كانت إحدى الشخصيات المعروفة تجلس بهرجة كبيرة، واستعراض ملحوظ، ولاحظ خالد أن هذه الشخصية تركز أنظارها إلى جهة معينة في المقهى، ولأنه يطبق نظرية عبدالله فقد تابع مسار النظرات حتى تعرف إلى سبب كل هذا التدقيق الواضح من قبل هذه الشخصية..

ففي طاولة أخرى كانت هناك عائلة تتكون من أم وفتاتين، كانت الصغرى على قدر كبير من الجمال والفخامة، فيما كانت الثانية أكبر سناً بقليل وأقل جمالاً مع امتلاكها الفخامة نفسها التي تمتلكها الصغرى، وصوب الصغيرة الحسنة كانت أنظار الشخصية المشهورة تتجه بحماس كبير، كان واضحاً لمن تابع المفاوضات المستميتة بالنظر تارة والتلويح تارة أخرى من قبل الشخصية أنه يريد التعرف إليها مهما كانت الظروف! فيما كانت الحسنة تشعر بانتصار ونشوة لكونها غدت هدفاً لهذا الإنسان المخملي مع فارق السن الكبير بينهما! وبدأ الهمس بين الأختين من دون أن تفهم الأم ما يخططان لأجله، وبعد همس دام طويلاً خرجت الحسنة بقرار اتضحت معالمه حين تبسمت للشخصية معلنة له الرضا والموافقة، وبعد وقت غير طويل خرجت الفتاتان من حدود المقهى، ثم سارتا على الرصيف المكتظ

بالسهارى، ثم وبعد دقائق قليلة أوعز الشخصية المهمة لأحد المرافقين فلحق بالفتاتين
وغاب في زحمة الناس!

نظر خالد إلى عبدالله مذهولاً مما شاهد وقال له: شفت اللي صار؟!

عبدالله: أنت كم شفت حالة..؟!

خالد: معقول..؟!

عبدالله: تابع وأنا أعطيك التفاصيل بعدين!

في هذه الأثناء بدأ الاستعراض المسائي يأخذ شكلاً جديداً عن ما كان في النهار، فقد
عبر من أمام المقهى موكب جديد يضم عشرات المرافقين، وكان سير الموكب هذه المرة
أسرع من أي وقت آخر، وحين وصل القائد الكبير بموكبه إلى منتصف المقهى التفت
بخيلاء واضح على الموجودين، وحينما لمح في الطرف البعيد من المقهى قائداً آخر من
الفصيلة نفسها ابتسم ابتسامة مصطنعة، ثم لوح له بيده، ولم ينتظر الرد حيث أكمل سيرة
بالسرعة نفسها، ومع مروره ضج المكان بالحديث عنه، ومع أن الجالسين من المخمليين من
أثرياء العالم، إلا أن هذا الثري أثار غيرتهم حتى لو حاولوا إنكارها، فالمسألة بالنسبة إليهم
استعراض قوى، وسباق ثروات!

مرت ليلة السائحين البوليسيين في مراقبة الحرية التي تجاوزت حدود الحرية، حتى
انتهت الحفلة! ثم خرج الصديقان بعد ليلة صاخبة، قررا أن يقوما بجولة فوق أرصفة
الشارع العريضة، يستمتعان بهواء الفجر الباريسي، تحررا من الصمت الذي أطبق على
أنفاسهما طوال وقت جلوسهما في المقهى، وبدأ كل واحد منهما يخبر الآخر عن المشاهد
التي التقطها في هذا التجمع العجيب.

كان خالد مذهولاً لدرجة لا يمكن تصديقها، فهو يدرك أن الغزل غريزة موجودة عند
الجنسين، ومن الطبيعي أن تجد شاباً أياً كانت جنسيته يسعى في التقرب إلى فتاة، لكن أن

يقوم بهذا رجل مشهور محسوب عليه كل لفتاته وهمساته وسكناته، وأمام كل هؤلاء الناس، وفي مقهى مزدحم، شيء لم يستطع استيعابه أبداً، لهذا كان يسأل عبدالله عن هذه الحركات الفاضحة، لكن عبدالله كان له رأي آخر حيث قال: المشكلة يا صديقي ما هي في الرجال اللي شفتم، المشكلة في البنات، يا أخي البنات يجون هنا بقصد عشان يتعرفون على أي واحد منهم، يعني السالفة ما هي إعجاب بين واحد وواحدة السالفة أبعد بكثير!

خالد: أبعد لحد وين يعني؟!

عبدالله: البنت تحاول تتعرف على واحد وضعه خاص لعدة أهداف أول هدف الزواج، وإذا فشل الهدف الأول تكون الصداقة وما يتبعها، عشان تستفيد مادياً ومعنوياً!

خالد: معقول، ها الحين كل شوفة النفس اللي عندهن وآخرتها الهدف المادة!

عبدالله: فلوس وكشخة، يعني البنت تبي تروح لصديقاتها وتكشخ أنها تعرف فلان وتعرف علان، وشوفة النفس هذي مصطنعة عشان تسوي نفسها أنها صعبة وتحقق اللي تبي، يا عمي والله بلاوي!

خالد - بآلم -: الله يا كبر الفرق بين الطموح؟!

عبدالله: وش قصدك..؟!

خالد: يا أخي يوم شفت ها البنات وعرفت أحلامهن تذكرت «عذراء أورليان»!

عبدالله: ومن تطلع هذي؟!

خالد: هذي فتاة فرنسية اسمها جان دارك وهي بطلة قومية وقديسة نذرت حياتها لمحاربة الاحتلال الإنجليزي، وقادت جيشاً لتحرير مدينة أورليانز، وهي بعمر 13 سنة، وماتت بعمر 19 سنة! شفت الفرق؟!

عبدالله: يا أخي وش فيك مصمم تنكد علينا وتخرّب أم سهرتنا، بعدين لا تقارن واللي يرحم
والديك، هذيك محتلة وهذي منحلة فيه فرق!

خالد - يضحك - : والله إنك جبتها يخرب بيت شيطانك!

عبدالله: لا تطلعني من المزاج، خلني أرجعك لسوالف الليلة، أنت ما سألت نفسك وين
يروحون ها الناس بعد ها المقاهي؟!

خالد: هو فيه بعد أماكن بعد ها الوقت؟!

عبدالله: طبعاً، تحسب الناس مثلك يروحون ينامون!

خالد: أجل وين يروحون؟!

عبدالله: عاد هذا عالم ثاني، فيه اللي يكمل سهرته بالجناح حقه بالفندق مع جوه الخاص،
وفيه اللي يروح للنوادي الليلية، وفيه ناس تجدد الجلسات بصالات الفنادق الكبيرة، كل
شيخ وطريقته مثل ما يقولون، في باريس ما فيه مشكلة في أي شي..!

واصل الصديقان مشيهما فوق أرصفة الشانز، إذ بدت في هذا الوقت أقل ازدحاماً إلا من
بعض المشاغبيين من المهاجرين، وبائعات الهوى من كل الجنسيات، فيما خلت المقاهي من
الناس ومن الطاومات ومن الكراسي، وبقي عمال المقاهي يتحركون بتناقل كبير
لإنهاء ما يجب عليهم عمله قبل الذهاب إلى بيوتهم، وفي منتصف الطريق أحس عبدالله
برغبة لدخول دورة المياه، وقد تصادف وجودهما الآن أمام بوابة فندق ماريوت فقال
لخالد: خلنا ندخل هنا، عندهم حمامات أزين من الغرف حققتنا اللي بالفندق!

عبرا باب الفندق واستقبلهما سلم كهربائي، وحينما صعدا إلى الأعلى كانت المفاجأة، ففي
بهو الفندق كانت كل الوجوه التي تجلس في المقاهي تكمل سهرتها تحت أنغام موسيقية
هادئة جداً، وبالطريقة نفسها التي يمارسونها في المقاهي..

ذهب عبدالله إلى دورة المياه ثم حين عاد توجه برفقة صديقه إلى الباب الخارجي وفي منتصف الباب التقى عبدالله بالرومانية الحسناء ساندا وجهاً لوجه، ابتسم عبدالله لصديقه، لكن المفاجأة أنها مرت من عنده وكأنها لم تشاهده، ولم ترد له الابتسامة، ودخلت بخطى سريعة صوب السلم الكهربائي! ما أزعج عبدالله، ولكنه حين خرج من باب الفندق توقف وقام يضرب كفاً بكف، وقال: حتى أنت يا ساندا؟!!

توجه الصديقان إلى الفندق بعد يوم طويل ومتعب ومملوء بالأحداث والمشاهدات، وخاصة خالد الذي بدأ يومه بشكل مبكر، وبعد وصولهما الفندق توجه كل منهما إلى غرفته..

دخل خالد غرفته منهكاً ومشوشاً بعد كل الأحداث التي تسارعت وتشكلت أمام عينيه، بدءاً من عذوبة باريس، ومروراً بسانت أندري، وانتهاء بكل العروض المذهلة في مقاهي شانزلزيه، ارتدى على سريره الصغير وبدأ يتنفس بعمق، حاول وهو يضع رأسه فوق وسادته أن يسترجع شريط يومه، لكن الحنين الذي ينبت فوق الوسائد رفض فكرة استعراض المشاهد ونقله من دون موافقته إلى وجه الحبيبة الغائبة لولو، بدأ فكره يستعيد كل لحظات وجوده مع الملاك الساحر الذي كبل مشاعره، وهز أغصان قلبه اللينة، ثم قفز فجأة من سريره واستخرج قارورة العطر التي أخذها منها وقام بشمها وكأنه مدمن هيروين، شمها بشغف حتى شعر بانتعاش كبير، ثم قام برش العطر في أجواء الغرفة وفوق السرير وعلى الوسادة، وحتى على ملابسه! ثم سلّم رأسه لمخدته وسلم عقله لأجنحة بدأت تحلق به إلى دنيا جديدة غير التي يعرفها.

كان خالد يحلم كثيراً أن يعشق مثل كل العاشقين، يتذكر أنه وفي مرحلة الدراسة الابتدائية أحب ابنة خالته التي كانت تزورهم مع والدتها بين فترة وأخرى، حب الصغار، حيث كان يشعر بأهميتها بالنسبة إليه، لهذا كان يستمتع بمساعدتها والانتصار لها من بقية الأطفال، وكانت تهتم به كثيراً لدرجة أنها كلما جاءت لزيارتهم تحمل معها بعض الحلوى وتقدمها لخالد كنوع من الامتنان لكل ما يقدمه لها.

ولكن هذا كله لم يكن كافياً لأن يرتقي مع مرور السنين إلى مرحلة الحب، فبمجرد أن وصل خالد إلى المرحلة المتوسطة منع من مخالطة البنات، وألبست الطفلة لباس النساء الكبار، وغطت وجهها، وانفصلا بعضهما عن بعض بشكل طبيعي، وتسبب هذا الإجراء في إذابة كل مشاعر الاهتمام التي نشأت فيما بينهما، وهام كل واحد منهما في طريقه، فالدنيا تراقب الأطفال، وحينما تنبت أجنحتهم تمسك بجناح كل طفل بيديها وتأخذه إلى قدره في هذا العالم الفسيح!.

لهذا حينما هبطت لولو هبوط الملائكة على قلب خالد سكنت في شرايينه بلا انتظار، بل وتسيّدت كل مساحات قلبه؛ لأنها حينما هبطت وجدت مهبطاً لائقاً أعدته بإتقان براءة الطفولة، وبقي منذ ذلك التاريخ في حالة ترقب!

بدا خالد متألماً هذا المساء أكثر من أي مساء سابق، فزمن الرحلة الباريسية قد انتصف واقترب موعد العودة إلى الديار من دون أن يعثر على أميرته الضائعة، ومن دون أن تتلطف هي وتتصل به ولو من باب الاعتذار، أو إنهاء العلاقة بطريقة حضارية مثل الطريقة الحضارية الصادقة التي بدأت فيها الحكاية!

كان خالد متألماً بشكل كبير بسبب أن مرورها بحياته في هذا التوقيت خصوصاً لم يكن جيداً على الإطلاق، فهو، وبسببها قد كره كل حكايات السفر التي خطط لها، واضطر لمسايرة صديقه عبدالله في برنامج المتعب؛ لأجل العثور عليها، وليس لقناعة منه بما يفعله، لهذا فهو الآن قد خسر متعته كسائح، وهدوءه كمسافر حالم جاء هارباً من المسرحيات السعودية التي تملأ حياته بالضجيج في كل الأوقات، وخسر قلبه البكر الذي فقد عذريته مع عابرة لا مع مقيمة، ما سيجعله أسيراً لذكريات محدودة ستمنعه من الحب من أي فتاة أخرى في الكون، فالحب يولد مرة واحدة..!

تتاقلت الهموم على خالد بشكل كبير، وأحس برغبة لأن يجد من يسمع له ويهتم لأجله، وليس كما يفعل صديقه عبدالله، الذي يعيش لأجل العيش، ولم يكن يعنيه الحب يوماً من الأيام! ثم تناول جهاز الكمبيوتر وبدأ يقلّب الأغنيات كعادته حين يختنق من التفكير لأي

سبب كان، وحين يكون السبب الحب والشوق والحنين فليس لكل ذلك إلا الأغنيات، وبدأ ينتقل من أغنية إلى أخرى ومن فنان إلى فنان لكنه لم يشعر هذه المرة بأنه قد أشبع حنينه، لهذا وعلى غير ما اعتاد عليه خالد فقد شعر برغبة للتمرد، أحس بأن وجوده في الغرفة ممكن أن يقتله فقرر أن يحطم كل الأنظمة التي تنظم له حياته وقرر الخروج إلى الشوارع..

كان الوقت متأخراً لقرار الخروج في شوارع باريس خاصة لشخص لا يعرفها جيداً، ولكن الحنين الذي ينهش في فؤاده لم يكن يعترف بكل هذه المحاذير..

عبر خالد شارع واشنطن ناحية الشانز ثم استدار باتجاه متحف اللوفر وبدأ بالسير بلا هدى، كانت جميع المقاهي والدكاكين في الشارع مغلقة ومعتمة، شعر بحزن عميق يلف ليل المدينة، حزن داكن يشبه حزنه، لم يكن هناك في الشوارع سوى بعض المتمردين المخمورين، وكثير من الظلام إلا من نور خافت يخرج من فوانيس داهمها النعاس..

تنازل خالد عن حذره ومشى فوق رصيف الشارع العريض حتى وصل بالقرب من الحدائق المنتشرة بين دكاكين الشانز وبين ساحة الكونكورد وارتقى فوق كرسي عريض وبدأ يتأمل حالته..

كان الوضع العام ينبئ بهطول الشعر، حزن المدينة وحزنه، وحكايات الحنين كلها كانت مؤشرات لميلاد قصيدة، وبعد وقت غير طويل أمسك خالد بهاتفه وبدأ يكتب دون توقف..

*على الرصيف المعتم الخالي

آثار جرح وموعد وذكرى

وليل مثل همي وغربالي

لا نجمة تضحك ولا قمرا

حزن المدينة جابك فبالي
ضج الحنين وخابره أدرى
ومشيت بدروبك على فالي
مثل الطفل مخنوق بالعبرا
نسّاني قلبي لا أخذ ظلاللي
وذكرني بجراح نست تبرا
بعض الشوارع ضاقت بحالي
وبعض الشوارع خافت المسرا
غنيت لين اهتز مواللي
والريح لا تسمع ولا تذرا
ما هي كثيرة خيبة آمالي
الشوق يكتب بس من يقرا
وكل ما سألني حظي البالي
أكذب وأقول إن الوعد بكرا
وفوق الرصيف المعتم الخالي
كتبت أحبك كلمة للذكرى

* قصيدة «حزن المدينة» للمؤلف.

شعر خالد بارتياح كبير حينما فرغ من كتابة حزنه وحزن المدينة، الهموم تصبح ألطف
حينما تتحول إلى الشعر، لهذا شعر خالد بأن الأوكسجين الذي كان يفتقده قد عاد إليه مع
حروف هذه القصيدة، وحمل ما بقي من جسده المنهك وعاد إلى الفندق..

لم يحتاج خالد بعد أحداث هذا اليوم لوقت طويل لكي ينام، ارتدى فوق سريره ونام مثل
طفل تعب من كثرة اللهو..

الفصل الخامس

- 1 -

مرت الأيام القليلة المتبقية من رحلة خالد مثل بقية الأيام السالفة، قضاها مع صديقه المتمرد بين مقاهي الشانزلزيه، وبين السان جيرمان، وبين المطاعم، وتحت رحمة ضجيج السعوديين الخانق في كل زوايا الشارع، المختلف في بقية الأيام الأخيرة أن تعلق خالد بوهم لولوّة تزايد بشكل كبير، وأصبح مع كل لحظة يشعر فيها بقرب موعد السفر أكثر ارتباكاً وأكثر حزناً وأكثر تعلقاً بها من أي وقت آخر، لم يستوعب بعد أنها سحابة مرت به، ورحلت مثل كل السحاب، وأنها مثل الأيام كانت غداً وغدت اليوم ثم صارت أمس..!

تعلقه الكبير بأمرته أصاب صديقه عبدالله بصداق، وبدأ ينهر خالد بقوة عن تصرفاته التي يعدها تصرفات طفولية لا تليق به، وسخر من مشاعره التي تتعلق بالأوهام ولا تعترف بالواقع، والأهم أنها لا تعرف حقيقة بعض البنات السعوديات في كل زمان، وكان يؤكد لخالد أنه قد تعرض لخيانة، وإن ما حدث في الطائرة ليس سوى نوع من أنواع التسلية لتمضية وقت الرحلة الطويل، وأكبر دليل على صدق تخميناته أنها لم تتصل..!

كلمات عبدالله عن عبث بعض البنات السعوديات والشباب على حد سواء ليس مبالغاً به كما كان خالد يعتقد، ففي السفر تتفرغ معظم الفتيات والشباب إلى ممارسة الغزل بشكل شره ومبالغ به، وكأنهم وحوش جائعة خرجت من قفص وبدأت تلتهم كل ما يمر من أمامها، في مشاهد أصبحت ظاهرة بشكل واضح، ففي الغالب تتعرف الفتاة إلى عدد كبير من الشباب، ومثلها يفعل الشاب، وقليل من هذه العلاقات ما تكتمل لا صداقة ولا حباً، بل إن بعض الفتيات حين تجلس مع صديقاتها تراهنهن على «خرفنة» أحد الشباب والعبث به من

باب المتعة، وذلك كمن يقوم باصطياد الطيور من باب متعة الصيد وليس لحاجة لها، وحين تقوم بخرفنته تبدأ الصديقات بالضحك من دون أن يعلم أنه هدف للسخرية لا أكثر ولا أقل..!

ومصطلح «الخرفنة» هو مصطلح أطلقته البنات السعوديات بالتحديد على الشاب الذي يقع فريسة لهن، وينفذ أوامرهن، ما يجعله أشبه بالخروف، وفي زمن سابق أصدرت مجموعة من الفتيات السعوديات قائمة بأسماء أشهر المتخرفنين من السعوديين بأرقام هواتفهم وتم نشرها في الإنترنت كنوع من فضحهم..!

وبالمقابل تحول الحب عند الشباب إلى عبث واضح، ولم تعد حكايات الغرام باقية بين الجنسين كما هي في كل الدنيا، ففي السنين الأخيرة امتلأت الصحف السعودية بأخبار وقصص قبض هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي كما يسميها البعض الشرطة الدينية، على عدد من الشباب المبتزين للفتيات، حيث تعتقد البنت بالحب وتتعلق بكل مشاعرها بالشاب، عبر التواصل معه عبر كل وسائل التقنية، وبعد أن تطمئن له تقوم بإرسال صورها العارية له أو تسمح له بتصويرها في مواقف حميمة، وبعد أن يحصل الشاب على هذه الصور يتحرك في داخله الشر والقبح الذي أخفاه عنها منذ البداية، ثم يقوم بابتزازها بدفع الأموال والخروج معه متى أراد، وتقديمها هدية لأصدقائه وإلا سيقوم بنشر صورها في الإنترنت وتوزيعها عبر كل وسائل التقنية، فتقوم الفتاة بمساييرته حتى تصل إلى حد لا يمكن معه الاستمرار، ثم تلجأ إلى الهيئة التي تقوم بالتنسيق معها في عمل شرك للعبث والقبض عليه وتقديمه إلى العدالة..!

هذا التحول في العلاقات الغرامية أفقد العارفين بالخفايا الثقة في مسألة الحب، ومن هؤلاء عبدالله الذي يطلع على قصص كثيرة تدور في الفلك نفسه، لهذا هو يعد ما حدث من لولة جزءاً من المسرحية والخرفنة العالية الجودة والإتقان، ولكنه يستغرب بشدة سر تعلق خالد بقصة تبدو مثل غيرها..!؟

وسط سفينة تزدحم بوجوه السياح كانت لولوة ومشاعل تجلسان في آخر الصفوف مثل العصافير المستكينه في أعشاشها، فمنذ قرار لولوة بالتخلي عن عملية البحث عن خالدها وهي تقوم يومياً بممارسة السياحة من باب إشغال وقتها بعيداً عن التفكير فيه، ليس لأجلها بل لأجل أختها التي تورطت بقصتها وعكرت صفو فرحتها بلقاء العائلة.

كانت السفينة تبحر في نهر «السين»، وكلما مرت بأحد المعالم الفرنسية التاريخية تبطئ من حركتها ثم ينطق المرشد السياحي الآلي الذي تختار لغته بنفسك ليحدثك عن تاريخ المعلم بشكل مختصر ووافٍ، ولأن معظم المباني التاريخية قد أنشئت على حافة النهر فقد كان أمام السائح فرصة لمعرفة معظم ما تمتاز به باريس العريقة، وفي منتصف النهر توقفت السفينة في مكان لا يبدو أن حوله أي أثر يستحق التوقف، ولكن المرشد الآلي بدد استفهام السائح وقال لهم بلغة حنونة: لقد جرت العادة في هذا المكان أن يقوم أي عابر به بطلب أمنية، أي أمنية يتمنى تحقيقها في حياته، فالفرنسيون اختلقوا منذ زمن بعيد فكرة طلب الأمنيات في هذا المكان، اعتقاداً منهم أنها إذا قيلت هنا ستتحقق، وغدت عرفاً عندهم، ويعتقد بهذا كثيرون لدرجة أن الفرنسيين أنفسهم من دون السياح يركبون هذه السفينة حتى يصلوا إلى هذا المكان ويطلبوا أمانهم!

وهنا نظرت مشاعل إلى أختها لولوة نظرة استفهام وقالت لها: وش تبين تتمنين..؟! أنا عن نفسي أبي أتمنى السفينة ترجع بسرعة بموت من ريحة ها السائح اللي قدامي..!؟

لولوة تضحك: يخرب بيتك، تمنى أي شي زين طيب!

مشاعل وبتعاطف حنون: أتمنى ربي يرجع لك خالدا!

لولوة بعد أن فاجأها كلام أختها وأيقظ في داخلها حكاية تتناساها بكل الطرائق: يا حبي لك يا ميشو، لكن تدرين والله أنا من ذيك الليلة دعيت ربي إذا كان خالد خير لي أنه يقربه مني، وإذا كان شر لي أنه يبعده وينسيني إياه طول عمري..!

كانت لولوة بعد قرار النسيان قد تحولت من زهرة فواحة إلى هيكل يابس رحلت عنه نضارة الحياة، وتوسمت بالحزن، وظهر سواد خفيف تحت عيونها، ولم تعد تهتم لأجل أي شيء في أمرها، وما زاد من حالتها سوءاً أنها ترى نفسها السبب في كل ما حدث، وصارت تلوم نفسها على إهمالها، وبالتالي تمزيق أحلامها بيديها، وهذا اللوم أيبسها أكثر فأكثر، وغدت حالتها واضحة جداً لوالديها، وحين كثرت عليها الأسئلة والتأويلات كانت ترمي سبب كل ذلك على الحمية وحرصها على المحافظة على الرشاقة في السفر؛ لأن السفر كما كانت تقول لهم سبب في زيادة الوزن، وبهذه الحيلة تخرج دائماً من الإحراج..!

- 3 -

في مقهى جميل يدعى «LE COQ» يطل على ساحة «trocadero» الشهيرة في باريس كان عبدالله يتأمل مصابيح الشارع وهو يجلس مع صديقه خالد المهموم في الليلة قبل الأخيرة من موعد عودتهما إلى الرياض، ولأن حالة صديقه تشغل باله فقد حاول باستخدام طريقته الساخرة في الكلام أن يخرج منه مما يشعر به حيث قال: على فكرة، ترى أنا من جيت لباريس وأنا محتفظ بثقافتي التاريخية، وما قلت لك إلا شي بسيط، كنت أبيتك تسأل بس أنت ما أعطيتني وجه!

خالد بملل وسخرية مقصودة: يكفي يا صاحب ثقافتك الخطيرة في كشف حقيقة ربنا بالشانز، والله لو يدرون عنك كان علقوك بقوس النصر قدام الله وخلقه!

عبدالله: لا يا حبيبي عندي ثقافة خاصة بتاريخ باريس، عشان كذا أبي أسالك تدري ليه
يسمون باريس بلد النورا!

خالد: لا تقول لي عشان مهند ونور صوروا فيها المسلسل؟!!

عبدالله - يضحك -: لا طبعاً، شفت إنك ما عندك سالفة..!

خالد: علمنا يا فيكتور هوجوا!

عبدالله: أولاً ترى فيكتور هوجو روائي ما هو كاتب تاريخي وتدري إن فيه شارع مهم
قريب مرة من هنا مسمينه على اسمه..!

خالد بحماس واضح: يا سلام عليهم، الله يا زين ها التقدير!

يقاطعه عبدالله: شوي، شوي، لا تندمج واللي يرحم والديك، ثم تحول جلستنا مقارنات بين
باريس وبين ديرتنا، يا عمي متى تفتنع أن المقارنات ظالمة، إنسى تقارن، لأنك بتظلم
باريس بكبرها! المهم بقول لك ليش سموها بلد النور، لأن باريس عام 1828م هي أول
مدينة في أوروبا تضاء شوارعها بمصابيح تعمل بالكيروسين! وفيه ناس يقولون عشان
فترة كانت الثقافة والأدب زمن فولتير بأعلى مستوياتها، وأن الثقافة نورت الناس لكن أنا
أميل للرأي الأول..

خالد: أيبيه، أول مرة تقول كلمة صح، المقارنات ظالمة!

عبدالله بحماس: وتدري إن اسم باريس أصلاً يرجع لاسم قبيلة تسمى باريس، والقبيلة
هذي هي أول من سكن ها المكان..!

خالد - يضحك -: والله لوها القبيلة عندنا كان تلقى الباريسيين ها الحين أكبر
همهم جلسة شيبان وقصيد وبيت شعر، وأهم أحلامهم يطلعون بواحدة من قنوات
البعارين، وإذا خربوها يروحون يستعرضون بمزايين الإبل بأم رقيقة!

كان الجو ساحراً لدرجة لا تصدق، وطاولات المقهى والمقاهي المجاورة تزدهم بوجوده العابرين، سياح أوصلتهم الخطى المتعبة من برج أيفل إلى هذه المقاهي، وفرنسيون عائدون من أعمالهم يتناولون طعام العشاء تحت سماء أيلول، وعشاق هاربون إلى أنفسهم يتمردون على الحياة ويقتسمون الضحكات والأحلام والطعام، ويكتبون صفحات في حكايتهم بين رائحة القهوة ورائحة المكان ورائحة الحب، فالعشاق في مثل هذه الدول التي تنعم بحرية الإنسان، يكتبون قصصهم على أرض الواقع، وليس في الخيال أو عبر وسائل التقنية، هنا يصنعون الذكريات الجميلة فوق الطرقات وتحت المطر، وعلى جدران المنازل العتيقة..!

تأمل خالد ما يدور حوله بين هذه الوجوه وتذكر أن رحلة العودة تنتظر نهاية الحفلة، فتشكل حزن عميق وواضح على تفاصيل وجهه للدرجة التي جعلت صاحبه يلحظ هذا الهم المعشش في ملامحه، وكأنه قد نسج من خيوط عنكبوت داكنة نسجت منذ مئات السنين، وأدرك عبدالله أن محاولاته لإضحاك صديقه وإخراجه من مشاعره باءت بالفشل، لهذا نادى خالد مستفهماً، ردينا على طير يا اللي..؟!!

خالد: تدري يا عبدالله وش أكثر شي يحزنني ها الحين؟!

عبدالله: إيش؟!

خالد: إني انحرمت أعيش قصة حب حقيقية بها الظروف اللي أشوفها، ماني مصدق إني ما قدرت أصنع مواعيد غرامية في بلد الحب مع إنسانة كانت راح تشكل حياتي، ماني مستوعب إني ما تمكنت أعيش اللهفة بمقهى وأشرب قهوة مع اللي أحبها، شي محزن إني أعيش الآن بالخريف وأشوف المطر ولا أقدر أكتب حكاية كنت أحلم فيها وأحلم أعيشها وأزرعها للذكرى! عرفت ليه أنا حزين يا صاحب..؟!!

عبدالله: يقول بدر بن عبدالمحسن:

* آه يا صاحب، يا صاحب

راحوا الأصحاب..!

الزمن غالب، والأمل كذاب..!

والوفا آه يا الوفا، خانوا الأحباب

ما بقى صاحب يا صاحب..

يستحق عتاب..!

* من قصيدة «يا صاحب» لبدر بن عبد المحسن.

خالد: يا خسارة، كانت الفرصة متاحة لنكتب قصة حب سعودية نادرة فوق أرض باريس، قصة بيضا، ما تشبه قصص الشانز، لكن الصحيح «الوفا آه يا الوفا، خانوا الأحباب»!

غاب نور باريس في عيني خالد، ومنذ هذه اللحظة بالتحديد بدأ يعيش حالة من الكآبة؛ لأنه سيعود إلى الديار مهزوماً مكسور الوجدان، يعود خائباً من لذة السفر، وذكريات الأماكن، وحكايات التاريخ، وحتى الصور التي كان يتفنن في التقاطها تغيب عن الكاميرا..

لم يبق من ذكريات السفر إلا جرح غائر، وصدمة عاطفية تجعله يفقد الثقة في الحب، وفي الوفاء، وفي صدقية الفتيات، وسيحتاج إلى وقت كبير جداً ليخرج مما هو فيه!

مضى هذا الليل بلا أحداث جديدة، فحكايات السعوديين بالشانزلزيه تتكرر كل يوم على الوتيرة نفسها وكأنها فيلم يعاد عرضه يومياً في ليالي الصيف منذ سنين، وسيستمر على هذا المنوال ما دام أن هناك من يحيي ذكرى التفاصيل..

وفي اليوم التالي وهو آخر أيام السفر في باريس، اقترح عبدالله على صديقه أن يذهبا للتسوق على الأقل في المحلات المطلة على شارع الشانزلزيه لشراء الهدايا لعائلاتهم وأصدقاء الاستراحة في الرياض، مثل العطورات والحلوى وبعض الإكسسوارات النادرة، ووافق خالد؛ لأنه لا يمكن أن يعود لوالديه من دون أن يأخذ لهما هدية، ومضت كل ساعات النهار وهما بين المحلات حتى تمكنا من شراء كل الهدايا المطلوبة..

وكل ليالي السفر يصبح الوقت بلا قيمة، يهرول سريعاً وكأنه يستعجل عودة المسافر في الوقت الذي يشعر فيه المسافر أنه لم يكاد أن يستمتع!

المساء الأخير لخالد فوق أرض باريس كان مثل الغرفة الرطبة المظلمة، غرفة تنتشر في أجوائها رائحة الموت، وليس لديها القدرة على سماع أصوات الناس، وكأنها غرفة منفية في الصحراء ومع تقادم السنين عليها نسيها الأحياء، هذا هو شعور خالد تجاه الليلة الأخيرة!

هزم تماماً وتذكر كلمات فرانك رفيقه العجوز الأمريكي العاشق، وقال وكأنه يحادثه: لولوة ليست كارولين، والسعودية ليست فرنسا، وأنا لست أنت يا فرانك، وطارق قلبي لم يكن سوى عابر سبيل، وليس الحب الحقيقي الذي كنت تراه؟!

سار برفقة صديقه لبرامج المساء كالمربوط، وحينما انفض السامر توجهها إلى الفندق وطلب عبدالله من خالد أن يرتب محتويات حقيبته، فعند حدود التاسعة صباحاً لا بد أن يتوجهها إلى مطار شارل ديغول الدولي لأجل العودة إلى الوطن!

أمضى خالد الساعات القليلة جداً التي سيقضيها في باريس بين ثنايا غرفته ممدداً فوق فراشه يتأمل سقف الغرفة، وليس لديه ما يقوله لنفسه، فحتى الأغنيات لم يعد يهتم لأجلها، عاصفة ذهنية تعصف به بلا رحمة، لم يستطع معها أن يرسو على أي مكان آمن، فكل ما يفكر به الآن لا يجدي نفعاً، انتهت الحفلة، ومات حلم، ومات فرح، ومات قلب، وانتهى كل شيء..!

بحلول العاشرة صباحاً، كان الصديقان يقفان عند كاونتر الخطوط الفرنسية بمطار «شارل ديغول» الدولي، لم يستغرقا وقتاً طويلاً للحصول على بطاقات صعود الطائرة، ثم استدارا بغرض التوجه لصالة الجوازات ومن ثم إلى صالة المغادرة..

تذكر خالد أن التدخين ممنوع في كل صالات المطار ولقربه من باب الدخول فكر أن ينتظر بعض الوقت للتدخين وشرب كوباً أخيراً من القهوة، كنوع من الوداع لباريس، خصوصاً أن زمن الإقلاع بعيد جداً، ولكن هذا التفكير لم يعجب صديقه غير المدخن للسجائر، وهنا اتفق الصديقان على أن يدخل عبدالله ويتجه إلى صالة المغادرة على أن يلحق به خالد بعد أن يكتفي من القهوة والدخان!

تسلل عبدالله مسرعاً بين زحمة الناس في المطار، وتجاوز طوابير الجوازات ثم استقل قطاراً صغيراً أخذه إلى الصالة المخصصة لرحلته، بينما توجه خالد إلى مقهى قريب واشترى كوباً من القهوة بلا سكر، ثم خرج من البوابة ووقف بجانب منفضة كبيرة للسجائر، وجلس فوق حقيبته يشفط الدخان بعناق وقبلات قوية، وكأنه سيودعه إلى الأبد، بينما تفرغت عيناه لمراقبة المسافرين، وعجب من كثر التفكير بهم، فقد تحولوا في عينيه مثل الطيور كل طائر ينشد وجهة خاصة، جاب وهو يتأملهم حتى في أحلامهم واختلاف ألوانهم وأشكالهم؛ ولأنه يقف عند حدود باب الدخول فقد كان شاهداً على كثير من دموع الوداع، وضحكات الأطفال المستبشرة بالركوب في الطائرة، مشاهد كثيرة ووجوه مختلفة يحكي كل منها حكاية جعلت خالداً يقفز بمشاعره من حزن إلى فرح إلى ضحكات، مع تغيير المواقف التي تمر من أمامه، ومع كل ذلك لم يكن لينسى لحظة وجه لولوة وتمنى لو أن القدر يبتسم من جديد فيعثر عليها الآن بين زحمة الناس، تمنى لو أن الحب الضائع والوجوه الضائعة تصبح مثل الحقائق الضائعة، لها صالات مخصصة ومسألة استرجاعها تظل مسألة وقت! ولكن لم تكن الوجوه هكذا، ولن يكون الحب كذلك!

في صالة المغادرة ومن أمام بوابة الصعود إلى الطائرة كان عبدالله يقف مربوكة لعدم وصول خالد حتى الآن، فقد أعلن منذ قليل عن موعد الصعود إلى الطائرة لجميع الركاب المغادرين إلى الرياض، وقد اصطف الجميع استعداداً للسفر من دون أن يصل خالد!

وعلى الفور اتصل عبدالله بصديقه ليستعجله وليعرف موقعه الآن، حيث خاف أن يكون قد أضع الطريق إلى الصالة، فمطار «شارل ديغول» كبير جداً ومن لا يتنبه حين يستقل القطار الداخلي من الممكن أن يذهب فيضيع بين الصالات!

لكن ماذا حدث؟! عبدالله يتصل وهاتف خالد مغلق، ما أربكه بشكل كبير وخاف أن يكون قد تعرض لمكروه ما، كرر المحاولة عشرات المرات وهو ينظر إلى الطابور المؤدي للطائرة الذي بدأ يتقلص، ولم يعد هناك من ركاب غير عدد قليل وهو وصديقه الضائع!

أخفقت كل محاولات عبدالله للوصول إلى خالد عبر الهاتف، وعاش في موقف لا يحسد عليه، فالطائرة على وشك الإقلاع وصديقه لم يصل، فهو من المستحيل أن يصعد الطائرة من دونه، وفي الوقت نفسه كيف سيجد رحلة في موعد قريب للعودة إلى الديار، ثم وهذا هو المهم الذي يشغل باله الآن، ماذا حل بخالد؟!

مضت الدقائق بسرعة بشكل كبير جداً وبدأت كل الأمور تضيق في وجه عبدالله، وكان على وشك قرار، خصوصاً أن موظفي الخطوط الفرنسية على البوابة قد استعجلوه قبل إغلاق الباب، وفي اللحظة التي قرر فيها عدم السفر رن جرس الرسائل في هاتفه وعلى الفور فتح الرسالة وإذا هي من خالد:

.. الغالي عبدالله، آسف جداً إذا سببت لك أي مشكلة، أنا بخير ولكني قررت ما أسافر، كل شي كان يناديني للسفر إلا قلبي، وبالأخير طعت قلبي، سافر بحفظ الله وإذا وصلت الرياض كلمني، ولا تخاف عليّ، في أمان الكريم!

الفصل السادس

- 1 -

لم يكن خالد مغامراً ولا فوضوياً في حياته وفي قراراته، فهو في كل قراراته كان يمنح نفسه وقتاً طويلاً حتى يتخذ أي قرار مهما كان في متناول اليد، وهذا عائد لشخصيته المتزنة والحذرة ولكن ماذا حدث مع خالد هذه المرة..؟!

الحقيقة أن القرار لم يخضع للأساليب نفسها التي كان خالد يتبعها مع قراراته، فهو وحتى اللحظة الأخيرة كان مستعداً للعودة إلى الوطن، وكان قد أعد مشاعره لاستقبال فكرة السفر برغم عدم تطابقها مع ما يتمنى، وحين قرر أن ينتظر لأجل التدخين كان محقاً ولم يخطط لشيء غير ما ذكره لصديقه، ولكن لحظات جلوسه خارج المطار وتأمله العميق في حكايته جعله يتيقن أن فكرة السفر ليست سوى فكرة غبية، لأن الصوت الذي يصرخ من داخله متوسلاً كان نابعاً من قلبه وليس من عقله!

وعلى غير ما اعتاد عليه استمع إلى نداء القلب، وتوجه إلى كاونتر الخطوط الفرنسية وألقى سفره من دون أن يخبر صديقه بما يفعل، حتى لا يعطيه فرصة ليجعله يغير من رأيه؛ ولتحاشي الحديث مع صديقه أقفل هاتفه حتى ركب سيارة الأجرة، وحينما اختفى المطار عن ناظريه أرسل لصاحبه تلك الرسالة.. وحين تأكد من أنه لم يسافر قام بإجراء اتصال عاجل بأخيه في الرياض يطلب منه دعمه ببعض المال؛ لأنه سيضطر للبقاء مدة أطول في باريس بسبب عدم اللحاق بالرحلة، ولعدم وجود حجوزات قريبة ستكون مسألة عودته غير معلومة، وطلب من أخيه التصرف حيال المال ولو ببيع محل الاتصالات الذي يملكه في الرياض وبأسرع وقت ممكن!

بعد القرار المفاجئ، وبعد رسالته إلى عبدالله، ومكالمته أخيه، أدرك خالد أنه قد أقدم على قرار صعب، ولكنه استعد لتحمل كل تبعاته مهما كانت، لهذا عاهد نفسه بأن يفكر بماذا سيفعل، لا لماذا فعل! وهذا الفكر منحه قوة كان يحتاج إليها كثيراً في هذه اللحظة، ومن دون تفكير عاد إلى فندقه الصغير، من دون أن يبحث عن خيارات أخرى، ومن حسن حظه أنه وجد غرفة متاحة، وبمجرد دخوله في غرفته قرر النوم بعمق؛ ليس لكونه متعباً بسبب قلة النوم، ولكن ليهرب من أفكاره التي تأكله مثل النار.. ولو لفترة قصيرة!

- 2 -

عند الساعة الخامسة بتوقيت باريس كانت عائلة لولو تجتمع في جناح الوالد بفندق الفورسيزون كعادتهم اليومية، ولكن هذا اليوم كان لدى الوالد قرار أو فكرة يريد مناقشتها مع أسرته، وهي فكرة السفر إلى سويسرا لقضاء بعض الأيام هناك، والاستمتاع بأجواء الخريف في القرى الجميلة، التي تنتشر بالقرب من جنيف بعيداً عن ضوضاء المدينة..

استهوت الفكرة الجميع بمن فيهم لولو، التي تريد أن تتناسى خالداً ببعدها عن باريس من ناحية، والناحية الأهم لكونها تعلم الآن أن خالداً لم يعد في باريس، فما تذكره من حديث الطائرة أن مدة مكوثه لن تتجاوز العشرة أيام، هذا إذا لم يكن قد عاد قبل هذا الموعد، أو أنه سافر إلى وجهة أخرى، لهذا وافقت عائلتها على قرار السفر، وبدأت الأسرة بقيادة مشاعل في التخطيط للسفر، وكان أول القرارات للرحلة هو قرار السفر بواسطة القطار حتى يستمتعوا بمناظر الريف الفرنسي، وحتى الوصول إلى جنيف.. كانت النقاشات عفوية وتحمل كثيراً من الآراء، وفي نهاية الأمر أوكلوا مسألة التخطيط كاملة لمشاعل بمساعدة لولو، على أن يقوموا بتحديد خط السير، وحجز الفنادق، وحجز القطار، وتحديد القرى والأماكن التي سيقومون بزيارتها، وتحديد تاريخ العودة، بشرط ألا تتجاوز مدة الرحلة خمسة أيام، ومن ثم العودة مجدداً إلى باريس.

كانت الشقيقتان في غاية الحماس لهذا القرار المفاجئ، لهذا قفزتا إلى غرفة مشاعل للتخطيط والتنفيذ، ولسهولة الحياة في هذا العالم فقد استطاعت مشاعل أن تنجز حجوزاتها بالكامل عبر استخدام الإنترنت وبطاقات الائتمان في وقت قصير، وكانت النتيجة أن موعد السفر سيكون عند العاشرة من صباح يوم الغد، عبر القطار باتجاه جنيف، وهي المحطة الأولى لهما في هذه الرحلة التي ستكون - كما اتفق الجميع - لمدة خمسة أيام، وشرعت الفتاتان بتجهيز كل ما تحتاج إليه العائلة للسفر.

- 3 -

عند آخر النهار استيقظ خالد مشوشاً ولا يدري أين هو الآن! جلس في سريره يضغط على رأسه الذي يشعر بأنه غداً مثل صهريج المياه المملوء، ثم ألم كبير في عينيه، وشد عضلي في رقبته وكأنه كان مربوطاً بطرف السرير.

استجمع قواه ثم دخل إلى دورة المياه وبدأ يستحم بالماء البارد الذي تدفق فوق جسده بغزارة من دون أن يشعر ببرودته إلا بعد وقت، وقد تسبب هذا الماء في استعادته بعضاً من حيويته، واتضحت الرؤية أمام عينيه، وزالت الغشاوة عن فكره، وبعدها أدرك كل ما يحصل له الآن، ولكنه لا يدرك ماذا سيفعل ابتداءً من هذه اللحظة، وكم سيجلس في باريس، وما خطته للبحث عن لولو؟!

أسئلة كثيرة عصفت بفكره جملة واحدة، ولكنه تجاوزها وقرر أن يخرج من هذه الغرفة الضيقة ليتنفس.. كان يخنق لدرجة ظن معها أن الأوكسجين لا يجد طريقاً لهذه الغرفة! توجه العاشق إلى الشانزلييه وتسلل مع المشاة إلى مقهى «الدوفيل» من دون اختيار منه، ولكنه اختيار الأقدام، كان كل ما يعرفه بالشارع كما هو، المواكب لا تزال تمارس

الاستعراض اليومي، وأعداد السعوديين لم تتغير منذ أمس، الغائب الوحيد عن هذا المشهد هو صديقه عبدالله الذي غادر وفي قلبه شغف لباريس!

طلب قهوته في مقهى بارد جداً، ولفت انتباهه وجود مسن سعودي مطحون يجلس وحيداً غير بعيد عنه.. واتضح له مستواه من طريقة لبسه، حيث كان يلبس بدلة قديمة وتحت الجاكيت، كان يعتمر سترة رياضية من القطن، بينما يلبس حذاءً مهترئاً غير نظيف.. وكما ويبدو أنه يرتجف من البرد!

أشغل هذا السعودي المطحون خالداً بشكل واضح، وبدأ يخمن في داخله عن أسباب وجود هذا الشخص في هذا المكان، ويبن كل هؤلاء الناس؟! وتساءل أيضاً عن سبب وجوده وحيداً؟! وهل يستطيع التحدث مع العاملين في هذا المقهى؟!

توقع خالد أشياء كثيرة عن هوية هذا الرجل ولكنه وجد نفسه أكثر تألفاً مع رأي أنه رجل مريض جاء يطلب العلاج هنا على حساب الدولة، وأنه الآن برفقة إما مترجم وإما أحد من السفارة، وقد يكون خرج الآن من المستشفى للنقاهة، ولكن لماذا يلبس هذه الملابس؟!

ظل خالد يراقبه وهو بين كل لحظة وأخرى يحدث نفسه بالتبرع وتقديم المساعدة له في أي أمر يطلبه هو، ولكنه كان يخشى من نتيجة ذلك، لذا أجل هذه الفكرة بعضاً من الوقت لعل المسن أن يبادر بنفسه ويطلب منه الخدمة، وهذا خيار أفضل بالنسبة إليه!

تشاغل خالد عنه أو تظاهر بالتشاغل بينما هو يراقبه بشكل حذر، وفجأة عبر المقهى موكب كبير من تلك الموكب التي تجتاح الشارع ليلاً ونهاراً، واتجه بلا تردد إلى جهة الرجل العجوز الذي ما إن شاهد قائد الموكب حتى وقف مثل الجندي ترحيباً به، وجلس القائد وبقية أفراد الموكب بينما اختار العجوز مقعداً بعيداً في الطاولة نفسها وجلس مستمعاً!

كان المشهد عجبياً بالنسبة إلى خالد، ولكنه من خلال الدروس اليومية التي تعلمها على يد صديقه عبدالله عرف الآن أن هذا الرجل ليس سوى مرافق «خوي» عند هذا القائد، وأنه

مكّلف هذا اليوم بحجز طاولة في هذا المقهى، وبعد أن قرر القائد الحضور جاء ليجد كل شيء جاهزاً، أشفق خالد على شيب هذا الرجل المسكين الذي لم يجد من يقدر له سنين عمره، ولعن الدنيا وحاجة الناس التي تجعل الرجال الوقورين يصبحون مثل هذا الرجل!

كان المشهد مؤلماً لخالد، ولكن الأكثر إيلاماً حينما سمع القائد يسخر من هذا العجوز وسط ضحكات المرافقين ورضا مصطنع من قبل المسن، الذي يبدو أنه قد تعود على هذا السيناريو، شعر خالد بإهانة كبيرة، ورأى أن الوضع الآن أشبه بحكاية مرعبة، وأن الموقف يحتاج إلى تدخل عاجل من قبل هيئة حقوق الإنسان، ولأنه لا يأمن نفسه لو بقي أكثر من هذا الوقت فقد سارع بدفع قيمة القهوة وخرج مسرعاً من المقهى، بعد أن شتم في سره سطوة المال التي تجعل قيمة الإنسان تصل إلى هذا الحد!

أحبط خالد كثيراً من هذا العرض السينمائي الرخيص الذي صادفه في أول لحظات وجوده في الشانز بعد قراره التاريخي، ولكنه استطاع بعد أن جاب الشارع عرضاً وطولاً أن يتجاوزه، وبدأ التفكير جدياً في الإجابة عن الأسئلة التي سألها لنفسه ولم يجب عنها؟!

لم يدم تفكير خالد طويلاً فهو صاحب قرار ويعرف حين يحتاج إلى نفسه أن يقرر ما هو مناسب، لهذا قرر أن يتفانى في البحث عن لولة، في كل جزء من هذا الشارع ووضع لنفسه موعداً لنهاية كل هذا العناء، إذ اقتنع بأن خمسة أيام كفيلاً بالعثور على حبيبته المفقودة وفق الجهد الذي سيبدله، بدءاً من هذه اللحظة، وأنه سيسافر على كل حال في اليوم الخامس مهما كانت النتيجة، بحسبان أنه إذا لم يجدها في هذه الأيام الخمسة فهو لن يجدها لو جلس العمر بأكمله باحثاً عنها في حواري باريس..!

ونظير هذا التفكير فقد توجه إلى أقرب مكتب للسفر والسياحة لترتيب أمر عودته إلى الرياض، ولم يكن المكتب بعيداً حيث توقف عند مكتب قريب يقع على جادة جورج سانك، وبدأ ترتيب المواعيد، ولكن لسوء حظه أنه لم يجد أي مقعد لأي رحلة مباشرة من باريس إلى الرياض وبالتالي سيكون أمام خيارات الرحلتين، ولهذا كانت أقرب فرصة متاحة له أن يسافر في اليوم نفسه الذي حدده عند الساعة الحادية عشرة مساءً من باريس إلى جنيف،

وعند التاسعة صباحاً يغادر إلى الرياض، ولم يكن أمام خالد خيارات أخرى، لهذا عقد العزم وأكمل إجراءات الحجز! بعد ذلك عاد إلى الشارع حيث بدأ يتفحص المقاهي والمحلات وكأنه رجل أمن مكلف بالبحث عن مجرم هارب من العدالة!

أمضى كل ليله حتى أغلقت المحلات وهو يقضي كل نصف ساعة تقريباً في مكان من دون أن يجد أي خبر أو شبه لأميرته الضائعة، في بلاد النور والعتور!

- 4 -

في اليوم التالي وحين خرج خالد من باب فندقه تذكر أنه قد طلب من صديقه عبدالله أن يزور فندق الفورسيزون ليطلع على حياة المخمليين، ولكن رغبات عبدالله لم تكن تتوافق مع الحركة بعيداً عن الشانزلزيه، حتى لو كانت الحركة في الشارع المجاور، لهذا لم تتم الزيارة، وعلى الفور توجه خالد إلى شارع جورج الخامس واتجه إلى الفندق حتى عبر بوابته الرئيسية، كانت لولو وعائلتها قد عبرت عشرات المرات عبر هذه الأبواب، وكان آخر عبور لها في صباح هذا اليوم حين توجهت إلى محطة القطارات في باريس، ولكن خالد ولولو مثل كثير من الأشياء القريبة جداً من حولنا ولكننا لا نراها ونبحث عنها في أماكن بعيدة!

كانت رائحة لولو العطرة تغلف المكان، شعر بها خالد ولم يشمها، أحس أن المكان يحمل سحراً جميلاً يجذبه إليه، وندم أن الأيام الماضية كانت بعيدة عن هذا المكان الساحر، وشعر بأن برنامج صديقه الممل قد أفقده كثيراً من جماليات باريس التي لا توجد في غير هذه المدينة الراقية، تجول خالد في أرجاء المكان وحسد الذين يستطيعون السكن فيه ولو لليلة واحدة، ثم اختار أحد المقاهي المنتشرة في صالة الفندق وجلس يتناول كوباً من الشاي، بينما يتابع بعينيه الغادين والرائحين من المخمليين، مر وقت طويل وخالد

يسترخي في بهو الفندق، وحينما هم بالخروج استعداداً لبدء رحلة البحث عن لؤلؤته في ثنايا الشارع قرر أن يأتي يومياً إلى هذا المكان ليسترخي فيه ويستمتع بأجوائه الساحرة!

خرج خالد من باب الفندق وفوجئ بالمطر، كانت السماء ملبدة بغيوم حمراء، وحبال المطر تتمايل فوق مباني باريس العتيقة وعلى شوارعها المليئة بالحكايات وكأنها نغمة عود دوزنتها أنامل عازف ماهر، ما جعل للشوارع والمباني رائحة عطرة، تشبه رائحة الخبز الساخن في الصباح.

لم يكن عبدالله مرافقاً لخالد هذه المرة، لذا فقد ابتسم ابتسامة المنتصر، ثم بدأ بإخراج الطفل المتمرد الذي يلهو في صدره منذ زمن.

ترك باب الفندق وبدأ يسير فوق الأرصفة بلا مظلة، كان المطر يتدفق فوق رأسه وجسده وكأنه يستحم به، وفوق أحد الأرصفة وقف خالد بسعادة كبيرة ومد يديه مثل طائر مهاجر أتعبه السفر الطويل فوق الصحراء، وبعد أن شارف على الهلاك داهمته غيمة كريمة جعلته بعد الصمت والعبوس يضحك ضحكة الحياة ويغني مثلما يغني فلاح ارتوى حقله بالماء بعد الجفاف.

تبلى خالد تماماً لدرجة لفتت انتباه العابرين، ولكنه لم يكن يبالي بأي شيء فقد منحته باريس بعضاً من جنونها وتمردها وأراد أن يقفز على طبيعته الهادئة، كما أراد أن يغسل بالمطر حزنه وضياعه..

في اليوم التالي بدأ خالد يومه بجولة عاجلة في شارع الشانزلزيه، ثم توجه إلى فندق الفورسيزون، وبعدها أمضى ما تبقى من نهاره وليله في البحث المضني عن لؤلؤة في الشوارع والمقاهي والمطاعم.. ولكن لا أثر لها، لقد تشابهت عليه كل الوجوه، وتشابهت الأيام، وتشابهت الأماكن، وتشابهت الأحداث، ولم يعد هناك من شيء يؤكد حقيقة لؤلؤة سوى ذكريات عابرة ولدت وماتت بين الأرض والسماء.

شعر العاشق بوجع كبير لحجم الخيبة، ولاحت له كل علامات النهاية حتى وصل إلى اليوم الخامس، وهو اليوم الأخير له في باريس، وهنا تمنى لو أنه قد صدق حديث عبدالله وحديث عقله، واقتنع بأن الحب الذي ينشده لم يمر بالسعودية ولا تعرفه قلوب الفتيات السعوديات!

فكر خالد أن يذهب إلى المطار عند الساعة الواحدة ظهراً بعد أن اقتنع أن ما أعاده إلى باريس كان وهماً، وفكر بالذهاب المبكر للمطار لينهي كل شيء بأسرع وقت ممكن.

سلم مفتاح غرفته ودفع حساب الليالي التي قضاها فيه، وحينما خرج من الباب تذكر جادة سانت أندري، تذكر ذلك المكان الساحر، وتلك القهوة المجنونة التي ارتشفها في ذلك المقهى الكهل، وتلك الطرقات الممهورة بالحب، وندم أنه لم يعد لزيارتها ولو لحظة، ولهذا فقد عاد إلى الفندق ووضع حقائبه عند موظفة الاستقبال، ولكنه أخذ هذه المرة معه الكاميرا، وقرر أن يلتقط كثيراً من الصور لذلك المكان الساحر قبل وداع باريس!

ركب سيارة الأجرة وتوجه للسان جيرمان، كان النهار مشمساً، وسماء باريس التي لا تفارقها الغيوم بدت داكنة الزرقة، وانعكست أشعة الشمس فوق المباني والأشجار التي بدأت بالتعري مكونة بريقاً مثل البريق الذي تأتي به صباحات الأعياد.

- 5 -

في الوقت نفسه الذي توجه فيه خالد إلى «السان جيرمان»، كانت عائلة لولو تنزل من السيارة أمام فندق الفورسيزون بعد رحلة رائعة بين جبال سويسرا الغنية بالطبيعة الخلابة.

كان النهار مغرباً للسياحة في باريس، لهذا وبعد أن وصلت العائلة لجناح الوالد، تقدمت مشاعل لوالدها ووالدتها وطلبت منهما الإذن لأن تستغل هذا الطقس الرائع والمشمس برفقة أختها في التجول بالحي اللاتيني والتسوق في «السان جيرمان»، وافق الوالدان على الرغم رفقهما ببنتاهما من التعب بعد عناء السفر!

- 6 -

في السان جيرمان كان خالد قد بدأ يلتقط الصور، صوّر كل الأماكن التي تمكنت من مشاعره، وظل ينتقل من مكان إلى آخر حتى دخل جادة سانت أندري.

كانت الجادة العتيقة هذا النهار ضاحكة، وغدت وكأنها قطعة نور سقطت من جبال القمر في ليلة مقمرة! تجول في زواياها الصغيرة والتقط لها عشرات الصور، وحين وصل خالد إلى مقهى «le relais odeo» شعر بحنين الغائبين، كل التفاصيل في هذا المقهى تنادي في خالد حكايات السنين التي تتجول في مساحات فؤاده، تناول كرسيّاً في آخر المقهى، وارتقى فوق أحضانه وكأنه لم يجلس منذ أعوام، هناك تعب خفي كان يقسو على جسده حتى أوصله إلى حد الإعياء، حضر إليه النادل وطلب منه أن يأتي له بقهوة داكنة سوداء خالية من السكر ومن الحليب، حيث كان يقول لنفسه إن القهوة بلا لولة يجب ألا تشرب بالسكر، ولا بالنكهات، كان يريد لها سوداء صافية السواد لتشاركه حزنه وحنينه.

بدأ خالد ينفث دخان سجائره في فضاء جادة سانت أندري الضيق، وبدأ معها في استرجاع ما فات من أحداث، وكيف وصل إلى أن يكون مثل مهاجر مشرد لا يملك أي أوراق ثبوتيه لهويته، وتعجب كيف لفتاة عابرة أن تعبت بقلبه كل هذا العبث؟!

هذا الحزن العميق لم يكن لأجل لولة فقط وإن كانت هي السبب، لكنه كان حزناً على قلبه المكلوم، قلبه المشرد، قلبه الذي عاش وحيداً وخاوياً من الحب الحقيقي، وحين عثر على من يسكنه فرَّ الحبيب كعصفور شارد من قفص، ومع انغماسه في هذا الحزن فاحت من مشاعره رائحة الشعر وبدأ يكتب على فاتورة المقهى حديث الألم بينه وبين قلبه..

*يوووو يا قلبي تعبنا

وسرقتنا ها السنين

وش كثر جينا ورحنا

وبعدنا متغربين

كنا نضحك.. كنا نبكي

مرة نفرح من قدرنا

ومن قدرنا مرة نشكي

يوووووو يا قلبي

وش اللي ما جرحنا

والله هذي الدنيا تتعب

مبهرة وشلون تبعد

بس ما تعرف تقرب

والأكيد..

إني أنا وأنت تعبنا

وسرقتنا ها السنين

ياما جينا.. ياما رحنا

وبعدنا متغربين..!

* من قصيدة «المقهى البعيد» للمؤلف.

عاش خالد مع قصيدته وهام في ملكوته، وكأنه يجلس وحيداً في هذا المكان، ومر الوقت سريعاً عليه وهو بلا حراك ولكنه نظر فجأة إلى ساعته وصعق أنه قد أمضى كل هذه الساعات في هذا المكان دون أن يشعر أو يمل أو يتنبه إلى أنه مرتبط بموعد سفر..

كانت الساعة وقتها تشير إلى السابعة والنصف بتوقيت فرنسا، وعليه الآن أن يدفع قيمة القهوة ثم يبحث عن سيارة تأخذه إلى الفندق، ثم إلى المطار، حتى يتمكن من إنهاء إجراءات السفر في الوقت المحدد وإلا سيضطر للبقاء في مكان لم يعد به ما يغري للبقاء سوى ذكريات حزينة، ولم تعد ميزانيته المنهكة قادرة على الإيفاء بالتزامات المسافر إلى مثل هذه البلاد!

بحث عن النادل كثيراً ليطلبه الفاتورة، ولكنه لم يكن يجد له أي أثر، انتظره طويلاً من دون أن يمر به، وشعر بأن الوقت سيضيع بانتظار النادل، فقام بنفسه حاملاً كاميرته إلى المحاسب ليدفع له قيمة القهوة بنفسه كسباً للوقت، وبالفعل طلب الفاتورة وناول قيمتها وتوجه إلى الباب مستعجلاً وهو يفكر.. أين سيجد سيارة أجرة في مثل هذا الوقت المزدهم؟!

خرج خالد من الجادة ثم توقف والتفت إليها التفاتة المودع المفارق، تأمل المباني والمحلات وتهد بحرارة وألم، ثم رفع يده ملوحاً لها وقال بصوت مسموع: وداعاً باريس!

قطع خالد الشارع الملاصق لجادة سانت أندري باتجاه محطة سيارات الأجرة، ولكنه حين وقف في طابور الانتظار اكتشف أنه قد نسي الكاميرا فوق طاولة المحاسب في المقهى، ارتبك كثيراً لهذا الموقف الذي لم يحسب له حساب، وخرج من الطابور مهرولاً باتجاه المقهى.

شعر خالد وهو يجري الآن بأن الحظ لم يكن مرافقاً له في رحلته هذه، فكل المواقف تثبت أنه تعيس الحظ، وآخرها نسيانه الكاميرا في هذا الوقت الحرج، وخشي ألا يجدها في مكانها، ولكنه أقفل الطريق أمام الأفكار السلبية حتى عبر باب المقهى، وبمجرد دخوله وجد المحاسب يلوح له بالكاميرا! ارتاح كثيراً حينما عثر على كاميرته، وحمد الله أنه قد تذكرها قبل أن يكون قد قطع مسافة كبيرة!

أمسك خالد بكاميرته وهم بالخروج، وحين وصل إلى الباب شعر بأن هناك من يريد الدخول، أبطأ من مشيته احتراماً للقادمين، ولكنه حينما رفع رأسه شعر بزلزال كاد أن يفقده حياته، كانت لولو الآن تقف أمامه بلحمها وشحمها، وقف وهو يتأملها كالمومياء بلا حراك، بينما سقطت الكاميرا من يده على الأرض، وشعر بأنه الآن قد تحول فجأة إلى تمثال ليس فيه ما يشير إلى الحياة!

.. مثله وقفت لولو غير مصدقة وغير مدركة أنها تقف أمام خالدها الذي ظنت أنه ليس سوى حلم عابر، حلم جميل لكنه مات كما تموت كل الأحلام!

كان المشهد خالياً من الكلام سوى من شهقة تطايرت أشلاؤها في رحاب المقهى الكهل، صدرت من أعماق لولو العاشقة، وسالت دمعة تقف على ضفاف جفونها كانت مستعدة للهطول متى ما أتاحت لها الفرصة!

تحولت الآن جادة سانت أندري إلى غيمة كبيرة، واستكان الحمام فوق الشرفات، واستيقظ الحظ، والتأم الجرح، وشعر العاشقان الآن بالرغبة في الغناء، كان أكثر ما يتمنيان في هذه اللحظة أن يرددان بأعلى شوقهما..

يا عيون الكون غضي بالنظر

اتركينا اثنين، عين تحكي لعين

اتركينا الشوق، ما خلى حذرا!

لقد صدق فرانك على كل حال، في باريس، حكايات الحب التي تولد لا تعرف الموت، ولا تعرف النسيان، ولا يمكن أن تتحول إلى صناديق الذكريات، في باريس سحر مباح، يتلقف القلوب مثل ملاك ناصع البياض، ويغسلها بالمطر، ويرسمها فوق جذوع الأشجار العتيقة، وينبتها في الشوارع وفي المقاهي، ويجمعها مثل حمائم السلام، ثم يطلقها في فضاءات ليست ككل الفضاءات..

إنها باريس..

وهل هناك مثل باريس..؟!

1. الغلاف
2. لؤلؤة في باريس
3. الإهداء
4. الفصل الأول
5. استفهام خالد الصامت ورطها كثيراً وكادت ...
6. الفصل الثاني
7. - 4 -
8. الفصل الثالث
9. الفصل الرابع
10. - 4 -
11. - 10 -
12. - 17 -
13. الفصل الخامس
14. الفصل السادس